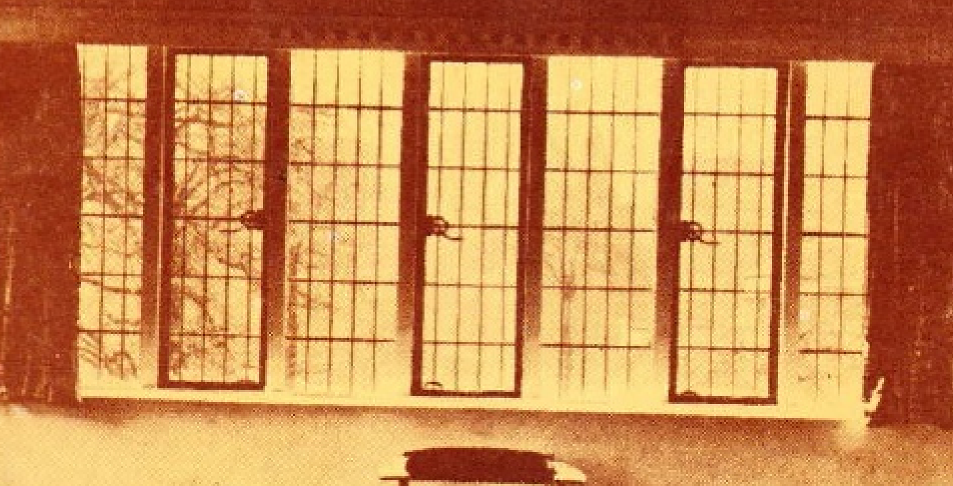


ايام الأنتيكة

مجموعة قصص

سعيد الكفراوي



دار الشؤون الثقافية العامة



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

سعيد الكفراوي

قصـص قصـيرة

كتبت هذه القصص من الفترة (اذار) ١٩٨٤ حتى (مايس) ١٩٨٧

الطبعة الاولى لسنة ـ ١٩٨٩

جدّي على العتبة :

وانا مستلقٍ على بطني فوق الزغلولة التي امتطيها عروسة ، رفعت رأسي وناديت :

ـ جدّي

يتلفع بعباءة جوخ زرقاء ، ويرمش بعينين كليلتين ناحيتي . قلت « رجع من السوق » . تحت العريشة تجتر البهائم حالمة ، ويجري الكلب عنتر لاعباً من جدار لجدار مع الجدي الصغير ، فيما تهب قبل المغرب نسمات باردة ، ويهلل مذياع القهوة بتكبيرة الفتح في رمضان .

ـ جدي

استند لجذع النخلة المائلة ، وهبطت انا لأكون بالقرب منه .

زعق :

ـ سقيت البهائم ؟

ـ نعم يا جدي .

ـ خلطت العلقة برشة الفول .

ـ نعم يا جدّي .

ـ رش الماء أمام الدار ، واسق البرتقالتين والزيتونة ، واطلق سراح العجل الصغير

ـ طيب يا جدي

مد يده وازاح عن جبهتي شعري .

ـ كم عمر الزغلولة يا جدي ؟

ـ كثير . من عمر اجداد اجدادك

ـ وانت كم عمرك يا جدي ؟

ـ كثير

ـ من ايام عرابي يعني ؟

ـ وانت من عرفك بعرابي ؟

ـ عندنا في كتاب التاريخ

ابتسم وطبطب على ظهري :

ـ ما شاء الله .

ثمة احجار مركونة في حضن السور ، ونور الشفق يسيل في السماء قبل مغرب رمضان . تطلعت الى وجهه وتذكرت ان ابي كلما قسا علي ووبخني بسبب اهمالي علومي ، جريت نحو جدي لائذاً بحضنه ، وكنت اسمعه يشخط في أبي « خليك وراه لما تجيب اجله » وكان يجلس ثم يأخذ رأسي ويضعها في حجره واسمعه يسب اشخاصاً مجهولين ، واراه يشير بيده ناحية الظل المرسوم على الحائط فيما تهدهدني رجله حتى انام فلا يوقظني حتى اصحو وحدي .

دس يده في العباءة واخرجه ملوحاً به امامي .

اندهشت لما رأيت الشمس الملونة تضوي خلفه ، وهتفت وانا اصفق بيدي :

ـ هيه . . هيه . . فانوس رمضان . . فانوس رمضان .

تواثبت ، وكلما مددت يدي لأخذه رفعه جدي أعلا مني ، فقلت له :

ـ حفظك الله يا جدي . . هات الفانوس ، ولا توجع قلبي .

انفجر ضاحكاً وقال لي :

ـ بريال يا ابن الشياطين ، خسارة في والديك . . حافظ عليه مثل عيونك ، وانبسط يا سيدي .

ازاح بيده حصى الارض ، ثم رفع العباءة الجوخ وفرشها في مد الظل ، ووضع العمامة على جز الفرع الناتىء بالتوتة . استلقى على العباءة ووضع ذراعه اليمنى على عينه ، وبدت لي لحيته كالقطن المندوف .

قال لي :

ـ إسْرَحْ حيث ابيك واعمامك ، واعرف ان كانوا انتهوا من ري مُرزة أم سيبيتون في الغيط .

ـ حاضر . . حاضر يا جدي .

ـ قل لجدتك تبل التمر والعرقسوس . . ريقي اليوم ناشف .

ـ حالاً يا جدي .

تسلل النوم من التوتة ، وسهى جدي واغلق عينيه ، لكنه ما يزال يواصل الحديث :

ـ حاذر ان توقظني قبل المغرب فأنا سوف ازور الغائبين .

عندما يتكلم بما لا افهم يكون على عتبة النوم .

ـ نوّر الفانوس واياك والذهاب لتلة الغجر .

انتظم تنفسه وجعل صدره يرتفع ويهبط ، يصدر منه شخيراً خفيفاً .

قلت : تلة الغجر . ما الذي ذكره بها ؟ . . ولماذا أذهب هناك ؟

ومن الذي يدلني على السكة حتى آخرالعمار ؟ هناك تنقطع الرجل ، ويزوم الهواء بشجر الترب .

ـ اياك وتلة الغجر ، يخطفون العيال ويدقون على صدورهم الوشم ، ويسموهم بغير اسمائهم .

بدأ يحلم ويخرف .

تركته وخرجت الوح بفانوسي الملون .

عند الباب قابلتني امي معصوبة الرأس ولما رأت الفانوس قالت « مبروك يا عبد المولى » . فأخبرتها فرحاً بأن جدي احضره لي من المركز ، فابتسمت لي . قلت لها « لماذا لما ينام جدي يتكلم عن الغجر ؟ » قالت لي امي « ان الغجر عباد الله ايضاً ، ولا يخيفون » وذكرتني بجليلة وقالت لي « وهل نسيت جليلة الغجرية يا عبد المولى ؟ » .

« جليلة » ، « جليلة » . . رددت الاسم ، وتطلعت للشمس المصفرة ، وافعمت صدري رائحة لبن محترق .

« جليلة » الغجرية . آه .

خطوط الوشم الثلاثة على الذقن والنقطة خضراء بجانب انفها السرح . خال للحسن مثل الزبيبة لا يمحوه الموت نفسه . . الحلق الهلالي يهتز بهزة الرأس فيضوي . وعيون بكحل رباني سارح فيها الغموض . وبريقها في قلب امي وخالاتي سر من الاسرار .

« نضرب الرمل ، ونشوف الودع ، زين نبين » .

« تعالي يا جليلة » .

وعلى ارض الزقاق ، وتحت التوتة الذكر تفرش المنديل ، وعليه حبات الرمل الناعم . العين الكحيلة في العيون ، مأسورات القرويات بسحرها الخفي . . تخطط الاصابع سكك العمر ، وتأتي بحظوط

الخلائق . . طرق مفتحة على السعد ، واواخرها افراح للبكارة ، وطمأنينة بعودة الغائبين ، سنة خير تدر الضروع اللبن ، وتملأ صوامع الغلة بالخير ونعمة الغيط . . لكن المخاطر كامنة في بطن الغيب كالكواسر ، حاسدة وكارهة . . ورب العباد المنجي ، ورسوله حافظ والطيب لا يضام . . وانت طيبة وصالحة يا « امينة » يا بنت « المرسي » وابنك « عبد المولى » محفوظ من العين ، ومن شرور الشياطين .

اسمع صوتها فاخرج من نومي مجتازاً الباب ، ولحظة انظر في عينها التي لم تكن في لون الرماد ، لكنها من نور اتسمّر على العتبة بين عتمة الدار وصهد الشمس .

ثوبها من تيل خفيف ، مشغول بدوائر تكشف عن قميص بلون ورد الجناين .

اخذتني في حضنها فأفعمني عرقها . . قالت لي « يا ابن الغالية » . . احسست برأسي في صدرها وجرى قلبي بالشوط . قبلتني على فمي وضحكت خالاتي « اتركي الولد يا قادرة ، فاجرة يا اختي وشها مكشوف وعينها تندب فيها رصاصة » .

تضحك بنت الغجر وتقول لها امي الطيبة « لا تغيبي عنا يا جليلة ، لك وحشة » ترد عليها الغجرية « أكل العيش مر يا ام عبد المولى » .

وعندما تبتعد عني ارتجف ، وأسمع قلبي يدق ، وأراها ترفع ثوبها وتكشف عن سمانة ساقها وتنظر ناحيتي « خللينا نشوفك يا عبد المولى » وتغيب في انحراف الشارع ويأتي صوتها عبر الدرب « نضرب الرمل ، ونشوف الودع . . زين نبين » .

تغيب ويبقى في قلبي صوتها والوعد بأن أراها .

بعد الفطار ، وشرب الشاي ، وتأدية الفرض نورت الفانوس ،

ولما شع نوره انبسط جدي وتـأمل بهجـة الألوان وهي مفـروشة عـلى الارض .

دفعت باب السياج وخرجت للحارة . . سمعت صوت عمي محذراً :

ـ احرص على الفانوس .

الحارة زحمة بالعيال ، ولمة البنات ، والبيـوت مشغولـة بكعك العيد ، وراديو المقهى عال بالذكر والتسابيح .

احاطني العيال لما رأوا فانوسي . ومشوا خلفي ترتمي على الارض ظلالهم . صعدنا حيث ضريح « ابو حسين » الكائن عـلى الترعـة ، هتفت :

ـ سيدي « ابو حسين » .

زام الهواء في الفروع العالية :

ـ تقول عنه امي ان سره باتع وصاحب معجزات . .

ـ وصاحب فضل ، وكرامات على البلد كلها . .

ـ ويسيّر السحب ، وينزل المطر . .

ـ هذا الله يا ابن الجاهل ، الذي سيبعثنا يوم القيامة فتذهب انت وابوك الى جهنم ، واذهب انا وجدي للجنة .

ضحك العيال ، ونظروا للفانوس الذي شـح نوره . . قـالت شفيقة :

ـ صروخت الشمعة ، والنور راح .

ـ بكرة تشتري شمعة يا عبد المولى وتنور الفانوس . .

ـ بكرة ليلة سبعة وعشرين ، ليلة القدر . .

ليلة القدر ، يعني بكرة طاقة النور ستفتح ، ويجاب الدعـاء ، ونروح تلة الغجر . انبهت العيال وردوا في نفس واحد :

ـ تلة الغجر ؟ لا يا عم .
صمتوا ثم ردوا في عجلة :
ـ وماله ، نروح .

الصبح قلت لأبي « هات » شلن ولما سألني « لماذا ؟ » قلت له اشتري شمعة . زعق في وجهي وقال « وشمعة البارح ؟ » قلت له « خلصت » شخط مرة ثانية « يعني يا ابن امك عاوز لك كل يوم شلن » . قلت « يا ابي الليلة ليلة القدر ، ولازم أنور الفانوس » .

رفع أبي يد الفأس فصَرَخْتُ ، وتراجعت بظهري فغاصت قدمي في وحلة الزريبة ، ولمحت العجل الرضيع يمتص ثدي امه الزهقانة والتي تدور على نفسها ، سمعت صوت جدي قرب الباب يقول لأبي « مالك ؟ » وسمعت أبي يرد عليه « والله وجبت لنا وجع الدماغ يا أبي ، عاوز شمعة » .

فرد محفظته البنية ، القديمة وفك أزرارها ، وكنت اسمع تكة الأزرار وهي تفتح فيفرح قلبي . . ما ان لمحت الشلن حتى قبضت بيدي على الملك الجليل ، وسمعت ابي يصرخ « ان ما افسدته » . درت على كل دكاكين البلد ، اسأل عن شمعة ، من حارة البحر حتى داير الناحية ، ومن « الواطية » حتى ارض المريس وصرخت في سري « نهار أغبر » . وصلت الدار انتفض وصرخت في امي « عاور شمعة » ورفست التراب ، وألقيت حجراً على نافذة المقعد . توقفت امي عن لت العجين وشخطت فيَّ « وبعدها لك يا عبد المولى . . احمد . . نخلق لك شمعة » .

صاح فيَّ عمي « احمد » جاءك الغم . . لا تنتهي طلباتك . . اصعد غرفة السطح ستجد لمبة صفيح صغيرة ، على قد الفانوس . . نظفها وركب لها شريط ، واملأها جاز وارح دماغنا كانت شورة

هباب » .

توقفت عن البكاء واقتربت من عمي وقلت له « واللمبة هذه اين يا عمي »فرد عليَّ « فوق . في الطاقة على يمين الباب وانت داخل » .

قفزت درج السلم وفتحت باب حجرة السطوح ، وفتشت في الطاقة ، وعثرت على المصباح ووجدته مصباحاً قديماً مدقوقاً في حجم ضفدعة كبيرة ، يعلوه صدأ وترابة الركنة ، منزو وسط ملاعق من خشب ولفة دوبارة وأختام قديمة بأسماء غابت ، وعقود اراضي مؤرخة من زمان ، وجدت نفسي خنجراً بنصل لامع داخل جراب من جلد ، همست لنفسي : « خنجر وفانوس » .

جمعت لوزات القطن ، وبرمتها شريطاً ، وغسلت المصباح بالطين والتراب ، ودعكته بالجاز ، ثم ملأته ، وغمست فيه الشريط .

في الليل نورت الفانوس وجمعت خلفي العيال وحثثنا المسير حيث تلة الغجر . خَلَفنَا وراءنا البلد وخُضنا في الظلام على نور الفانوس ، ورأيت دخاناً خفيفاً يصعد من الشريط المحترق فيسودَ جوانب الفانوس .

مررنا على عشة « أم بلال » المرأة المقطوعة ، والتي ليس لها اهل . رأيتها تقف عند عشتها بالقرب من طلمبة المياه ، القيت عليها السلام فردته وسألت « الى أين العزم يا عيال ؟ » فأجبناها بصوت واحد « لتلة الغجر » . ضحكت المرأة بصوت أفزعنا ولوحت بيدها ناحيتنا وصاحت « تلة الغجر ؟ » أنتم يا مفاعيص . . ارجعوا يا أولاد الشياطين . . غجر في عيونكم . . ان ذهبتم الى هناك فسوف يخطفوكم ويخصوكم كالجديان ، ويفتحون بطونكم ، ويخرجون حشاكم ، ثم يملأونها بالملح ويصبروكم ويعلقوكم على أبواب خيامهم » .

خفنا وتسمّرت قدامنا في الارض ، وبدا من حولنا الليل ممتداً .

انفلت « سعيد بدر » ومن خلفه الولد « ماضي » وقفلا راجعين .

حثثنا المسير ، وتوغلنا في الليل ، وكلما سرنا شح النور ، وانحبست الشعلة وسط طبقة السناج الذي هيب الزجاج الملون .

هبت ريح فانتفض الشجر ، ارتفع من البعد عواء ذئب من عند الترب ، وخفقت في السماء النجوم ، انحبس صوتنا ، وشعت الأيادي بعضها .

قلت :

ـ هانت يا أولاد . . قربت التلة .

سمعت صوتي ولم أسمع جواباً .

ارتعشت ذبالة الفانوس وانطفأت ، وحل الظلام كالكحل .

بكت شفيقة واستغاثت :

ـ انا خائفة .

رفعت الفانوس وقلت لهم :

ـ سينور الله الارض بطاقة القدر .

ـ عاوزه أرجع .

ـ سأطلب من الله ان يطول عمر جدي . . ما الذي ستطلبينه يا شفيقة ؟

ـ أروّح .

صرخ عثمان أصغرنا وتوسل لمنجي :

ـ ارجع معي يا منجي ، امي ستقتلني .

انفصل عني العيال وعادوا يهرولون تجاه البلد . سرت لمقصدي وحدي . بيميني فانوسي الذي ضاعت الوانه . . همست : « سوف اذهب وحدي حتى لو امتلأت الارض بالشياطين » ولما ذكرت الشياطين ارتجف جسمي .

ضاقت الغيطان ، ورأيت الشجر يمد ناحيتي فروعه ، وسمعت داخل الحلفاء خروشة . . تشجعت وقلت في نفسي « الشياطين مسجونة في رمضان ، هدىء نفسـك » . جاء صـوت الكروان الملك لـك الملك لك ، فهدأ روعي وقلت « انا الغلطان خدعني نور الفانوس ، والوعد القديم ، فمشيت اتبع خطى النور » .

اردت ان اعود لكن محاولتي لم تعد مجدية . من على البعد سمعت ضرب دفوف يحملها الريح . انتبهت على هلال وليد كشقة البطيخة ينسحب في السماء . همست « التلة بعيدة والقمر ليس بدليل » .

لاحت لعيني التلة موشومة بأشجار قليلة منتشرة على الجنبات . خيام ثلاثة تنيرها مصابيح معلقة على عواميد ، تخفق كاشفة عن خيام الوبر المنصوبة في حضن بعضها البعض .

صَعدتُ التلة ، ولما تعبت جلست على حجر .

رأيتهم يتحلقون ، ويضربون الدفوف ويغنون على انغام نـاي ومزمار ، وصلني النغم اليفاً ومؤانساً .

اقتربت فرأيت « الواوي » يقف تحت المصباح الكبير ، ولما تأملته وجدت له جدائل مضفرة ، وباذنه اليسرى قرط من الفضة ، تتدلى منه اجراس صغيرة ، وعندما رفع كفيه وجدت بهما خواتم بفصوص على شكل جعارين ، وفوق عينيه حاجبان متصلان يختطان على عيني صقر ، فيما تتجلل اسنانه بتيجان الذهب الذي يلمع كلما ضحك على ضوء النار الغجرية .

تحرك « النورى » القصير واذكى النار بسيخ من الحديد فَعلتْ . ثمة آخر يلتف حول ذراعه ثعبان مرفوع القحف يخرج شوكته ويحدق بعينين لا تطرفان ، ونسناس صغير يقف على كتفه صامتاً ، وعلى وجهه حكمة الشيوخ .

تعبت من النظر والمخاوف ، وكأنني غفوت . . هل اخذتني سنة من النوم ؟ ام النار وقرع الدفوف و « المواوي »● المبتسم قد سحروني ، عندما رأيت طاقة السماء تنفتح وتشع بالضياء وتهبط منها الملائكة المجنحة وتدور بالمكان فيما تهب روائح الجنة . . قلت « أدعو لجدي . ليلة القدر لا يرد فيها الدعاء » ورأيت غجرياً يستقبل الملائكة بالدف ، فيما انسحب « المواوي » واندس في حلقة الغجر وأخذ يد غجرية مليحة الوجه ، مشدودة القوام ، تلبس فستاناً من الحرير ، وتشد خصرها بحزام اخضر ، له طرف مسدل حتى فخذها . اتخذت لنفسها مكاناً وسط الحلقة وأخذت ترقص على ايقاع الدف ، ومن خلفها تفتح امامي ابواب على حدائق مزهرة ، ما تزال الملائكة تطوف بها .

« جليلة » « جليلة » .

صحت فانتبه « المواوي » لوجودي فتقدم مني وقال وهو يبتسم « جئت ؟ » فقلت « آه » .

سحبني من يدي ، وعلى طاولة استلقيت على ظهري . وضع يده اليمنى على صدري ، وأحضرت ذات الوشم والحلق الهلالي صحن الصاج الكبير الممتلىء بماء فاتر يصعد بخاره هَمَسْتُ : جليلة ، طلب « المواوي » المورد والجنزبيل والزعفران والكافور والصندل الابيض وأذابها في الماء وسمعت صوته يتمتم الحرف اصل الكلام ، والعرش قائم على الحرف ، فلم أفهم .

لما تنشقت رائحة الطيب أغمضت عيني وقلت « عطر » رأيته يفتح سكينه . . ويعلم على صدري علامة ، فاشتد روعي . . فقال « لا تخف » وشق لي صدري فقلت « آه » فسمعتهم يرددون « سلامتك » .

رأيت قلبي المنتزع يخفق في كفه ، تسيل منه الدماء ، وسمعته

يهتف بي « ها انت ذا ترى قلبك » . حاولت النهوض لكنه أوقفني وقال « احتفظ بسرك » فقلت ، ظمئت ، فقال لهم : « أرو ظمأه » .

وضع قلبي في الاناء فطفا دمه على الماء ، غسله ونظفه وكتب عليه بالقلم البسط حروفاً وكلمات ولما سألته ماذا يكتب ؟ رد عليّ « انه عليم بما يعمل » .

تواصل دق الدفوف وصوت الناي والمزمار ، وهللت فراشات فوق النار الغجرية ، وشعت على التلة بهجة من الجنة .

وضع في صدري قلبي ، فانتثرت نجومي التي تتبعتها حتى اخر عمري ، وقلت لجدي الذي كان يلبس وزرة ملونة ، ويعتمر عمامة هائلة على رأسه ، وممسكاً بيده الصولجان « انظر يا جدي انها نجومي » لكنه لم ينظر وقال « الضنى عقوبة القلب ، والسفر الطويل » ، ثم وضع بيدي حبات التمر وقال قبل ان يختفي وجهه « اشبع جوعك » .

هزني « المواوي » وسألني عن اسمي . أخذتُ ونسيت اسمي فردت الغجرية « عبد المولى » فقال « المواوي » بعدت كثيراً يا عبد المولى ، ووضع شمعة في الفانوس بعد أن غسله ، فعادت من جديد أنوار الفانوس الملونة . وقال لي « حاذر الحجر ، وقطوع السكك ، خذ يمينك عند المنحنى القادم ولسوف تصل للمبلد مع طلوع النهار » .

هبطتُ من ابط التلة ، وسرتُ بين السرو والكافور أشم في الليل رائحة عطر ، وأسمع صوت الغناء ، فيما يتدفق على يميني تيار من الماء الجاري .

● « المواوي » شيخ الغجر وكبيرهم .

يمتطي الصبي الجليل « عبد المولى » ظهر الآتان (لم يكن يعرف انه ملاقيه) ينتقل من غرب المرج حتى مدق المسير ، فتتجلى له الدنيا ـ في الحلم ـ كوكباً درياً ، والشمس مستوية في العلا على رأسه حيث رآها تبحر بشراع من نار ، تبدو وهي تفارقه محنة للقلب .

مضى عليه وهو واقف قمران ، وثلاثون شمساً ، هبت فيها ريح رضية أول الأمر ، لاهبة وخائنة مع آخر الشموس .

لا يعرف ما الذي دفعه للانتظار ؟

(كأنه ينتظر تجليه) .

يلوح مراوغاً في فضاء الظهر ، دافعاً بالمخاوف الى قلبه .

عنق طويل من عظام ووبر ، ينتهي برأس صغير دقيق ، فيه عينان واسعتان مخيفتان .

(لم استطع ان اقاومهما ، وهربت من خوفي بستر عيني حتى لا أرى ما أرى) .

شفة مشقوقة كأنما ضربت بسكين ، تلتقط من أعلى الشجر خضرة الفرع ، وتلوكه اسنان كحب الذرة .

(لو انني لم امتط ظهر الآتان وافارق غرب المرج ، وانتظرت أرقب عيني السمكـة التي تحدقني من جـدول الماء وتبـدو مبتسمة ، لـو انني ما تهورت وفارقت امي التي تنتظرني من اول النهار على عتبـة الدار ، تضع يدها على عينها وتنظر الى بعيد وتسأل : ما الذي اخر الولد ؟) .

يدفع بعنقـه المقوس سـور اللبن فينهدم ، وينتشـر غبار الهـدم كدخان . يصنع لنفسه طريقاً ينفذ منه طالباً الولد .

ظهر بجسمه الكبير على السكة مهرولاً فحوّم سرب القطا يهف باجنحته ناحية الماء .

(يطلبني ويجد في أثري ، مهرولاً بأخفافه الأربعة التي تنطبع على تراب السكة ، وكلما نظرت ناحيته اضطرب قلبي ، وفـارقني أماني . يخرج من بين الشجر ويقصدني ، وأنا مقيد فوق ظهر الأتان التي حرنت ورفضت السير . اسمع (بقا ليله) كالطبلة في قطعة الظهر الأحمر) .

(جمل الدار هوَّ جمل الدار) .

اطلقها مستغيثاً صرخة مدوية .

ـ الحقوني جمل الدار هيموتني .

انتبه من منامه على لحظة من يقظة ـ تلك اليقظة التي نصفها نوم ونصفهـا ادراك ـ احس بيـد تـوضـع عـلى جبهتـه . هـل كـانت يـد « مصاوي » اخته التي تنام جنبه ؟ . أم يد الحنونة « أمينة » امه ؟ .

سمع صوتاً لم يميزه « اسم النبي حارسك وصاينك ـ بيحلم » .

كان لزاماً عليه أن يعود من لحظة الافاقة ـ التي نصفها نوم ونصفها ادراك ـ ليرى ذا الاخفاف والسنام العالي يأتي نحوه بقوة وانتظام .

ترك الأتان واستلم جسر النهر يعدو تحت سماء مكشوفة ، يحدق فيه الجمل ، وتضيق بينهما المسافات . خيِّل للصبي انه شل ، وان قدمه مغروسة في أرض أرز مرويّة .

ـ الجمل هيموتني .

تمنى بشغف ان يرى انسياً . . رجل على النهر . انحرف على اليمين وتجاوز خط السنط ، وحديقة البرتقال ، وعبر القنطرة .

سمع في البعيد ـ في الحلم ـ صوت الآذان يأتي من جامع « أبو حسين » فاندفع ناحيته .

انزلقت قدمه فهوى مستنداً على يده . لهاث الجمل في قفاه وخطوه لم يعد يفصله عن المطارد الا أشبار .

فوجىء بسيدي « أبو حسين » بنفسه يقف على باب مسجده .

ـ سيدي أبو حسين .

قالها ملهوفاً ممدود اليد كالمحتاج .

يتجلى في جبة من الجوخ الأزرق ، وعلى رأسه عمامة هائلة ، ملفوفة بشال اخضر في لون الزرع ، تحيط وجهه لحية طويلة من هيبة بيضاء .

ـ الحقني يا مولانا الجمل هيموتني .

(ولما القيتُ نفسي في حضن سيدي ، راح روعي ، وعندما نظرتُ تجاه الجمل وجدته يقف مكانه ، لحظة أن أشار له مولاي « مكانك يا جمل » وقف الجمل مكانه وعيّط) .

. . . .

الصبح قص على امه رؤيته .

وقال لها : انه يخشى النوم حتى لا يحلم ويرى الجمل .

وضعت يدها على صدره ، وقالت له : عليك نذر ، والجمل في الحلم شيخ .

قال لها : انه من زمان يرى الجمل في الحلم ، وانه بات يكره جمل الدار وكل الجمال في البلد .

قالت له : وفّ النذر ، ينصرف الخوف .

في العصر جهزت سبت السمار الملون والمرسوم عليه عرائس ، وحطت فيه النذر .

قرص ، وبرتقال وفضلة الخير فطيرة من الدقيق العلامة ، وفي جيبها دست جنيهاً ، وعلى الطريق من البلد للمقام دعت (نذرك يا أبو حسين ، اصرف عن وليدي خوفه ، فالخوف في البلد من طبع النساء) .

وكان الولد اذا ما عبر كوبري الرباط ، وجلس على سور الحجر ، رافعاً ركبته ، مسنداً عليها ذقنه الصغير ، محدقاً في الزراعية ، ويرى على البعد قافلة الجمال ، آتية في رهط مختلط ، مربوطة لبعضها البعض ، متوجهة لسوق الثلاثاء . وكان يرى سيقانها العالية تنحط على السكة ، ويرى لعابها ينساب على الارض في خطوط ، ينهض من جلسته ويحادث صاحب الجمال (على فين العزم ؟) ينظر اليه الرجل مستغرباً ويرد عليه (الى السوق) .

يظل يحدق في رهط الجمال الذاهبة حتى تغيب ، وبرأسه يتجسد جمل المنام .

. . . .

تكررت رؤيته للحلم .

فزع بالليل، ففزعت الجارة والجار .

أخبرت « سكينة » النسوة بالحلم فقالوا لها ، أبو عبد المولى عليه نذر كبير ، والرجل بطنه واسعة ، ويأكل مال النبي . شخطت فيهن « سكينة » : أن يخرسن ، فالرجل يزكي ويتقي ويعامل الناس بما يرضي الله ، وماله ، للفقير فيه نصيب ، وحقيقة الأمر ان الولد محسود .

واذ يسير الأب ممتطياً ظهر الحمار ، صانعاً لوايات البرسيم ،

ودافعاً بها لشدق الجمل الذي يشبه « الشروقة » يمر به الحاج « يوسف عبيد » راكباً حماره ، وبعد السلام يسأل :

ـ الولد ماله ؟

ـ بخير

ـ معذور ؟

ـ أبدا . . غُمّة وتعدي . يخاف .

ـ ربك المنجي .

تطبطب العصا على عنق الحمار ، وتضرب رجله اليمنى جنبه ، ويطلق صوتاً محزوقاً « حا » فيركض الحصاوي مخلفاً غبرة تعلو حتى الأب وجمله الذي بدأ يحادثه بصوت مسموع :

ـ اياك تظن نفسك شيخ ، والى متى ستعاود ولدي بالفزعة . خف عن ابني ، ولا تزد من همي ، فخزائن الأرض لا تعوضني عن ولد أهبل .

هدر البعير وأشاح برأسه ، وتطلع من علاه ناحية الأب الذي قال مستسلماً :

ـ مقدر ومكتوب .

. . . .

في الضحى نصبوا الفخاخ للقطا ، ورموا النبقة بالحجارة ، وقطفوا حب العنب من غيط « عبدالغني بدر » المجموع ، ورأوا على النهر مراكب راحلة بالجرار وأحمال القصب .

في مصليّة « أبوموسى » خلعوا أثوابهم ، ورموا بأرواحهم للنهر ، سبحوا حتى البر الثاني وعادوا ، ثم خرجوا من الماء . . هتف ولد « بعبد المولى » :

ـ يقولون انك تخاف من الجمل ؟

ـ في الحلم .

ـ يا ابن امك حد يخاف من الجمل

ـ الجمل عدو

ـ أصلك خوّاف ، وابن خوافين .

ولما لم يجد هدومه سأل العيال « أين هدومي ؟ » فضحكوا منه ، والتفوا حوله عارياً ، كان وسطهم تظهر عورته وتبدو مؤخرته مكشوفة للعيال . . صرخ فيهم « هدومي يا أولاد الكلب » الا انهم اخذوا يجرسونه في زفة صاخبة صائحين (هم يا جمل . . هم هم ، هم هم . . هم يا جمل . . هم هم ، هم هم . . .) .

في الليل شرق في المنام . نهضت امه واستلفت من الجارة « طاست الخضة » ووضعتها على السطوح بمائها حتى الصباح . . شربها لما قام ، وفي نفس الليلة هاجمه الجمل .

ظهر الجمعة جاءت خالته للدار ، التي يلوذ بحضنها ، والتي لا يميزها عن امه .

دخلوا المندرة التي تشيع فيها ظلمة خفيفة وسمعها ، تنادي امه :

ـ النار يا أمينة .

دخلت امه تحمل اناء الفخار ، مصفوفة عليه قوالع هرمية الشكل طابت نارها ، واستقرت حمراء مثل عين العفريت . وضعت امه اناء النار وسط البحراية ورمت بها البخور فتصاعد برائحة ذكرته برائحة المقام .

كان يجلس بجوار الجدار ، يده في عبه وينتظر . سمع خالته تكلم نفسها « لن يتركنا تعب القلب ، وكل هم في الدنيا وله قلب بالعنية » .

ـ العروسة يا أمينة

رأى عروساً من ورق بذراعين وقدمين مفتوحين ورأس مدورة . نظر أمه تخزق عين العروسة وجسمها بابرة ، وسمع خالته تتمتم بأدعية

غريبة على سمعه ، تستجير بالله بجرأة وكأنها تراه قريباً منها « ارفع عن ابني خوفه ، فنحن ناس في حالنا » .

مع خطوته الاولى على النار تمتمت (« الأولى باسم الله » ، وخطى النار الثانية ، فسمعها تقول « والثانية باسم الله » ، وخطى على النار الثالثة ، فسمعها تقول « والثالثة باسم الله » حتى خطى النار السابعة فسمعها تقول « والسابعة رقيتك واسترقيتك من عين حاسد شافك ولا سمى) .

رمت بالملح في الأركان ، وألصقت عروس الورق على جدار الطين ، وشع في المكان الصهد فيما خرج من النافذة المفتوحة صوت الخالة الى خارج الدار .

(وكنت وسط الدخان أخاف خالتي وأمي ، ألوذ بالجدار وأنظر من النافذة حين رأيته أمامي يجتر غذاءه في تؤدة وصبر ، يحدق ناحيتي بعينين مستقرتين ، وكأنما جاء على رائحة البخور والتمتمات والرقى . حدجني طويلاً . . فصرختُ . انتبهت خالتي وأمي ونظرتا من النافذة ، وصاحتا « الجمل . . الجمل » . كان بلا مقود ، يحرك فكيه في حركة رتيبة ومنتظمة ، وينظر تجاهنا . وكنت أرفع ثوبي ، وأبدو بعورة مكشوفة ، انتفض من خنقة الدخان ورؤية الجمل المفاجئة .

قبضت خالتي على حفنة من الرماد وألقتها في وجه الجمل وصاحت فيه :

ـ حل عنا يا لعين ، فالولد حيلة .

. . . .

الصبح سرح مع أبيه .

أخذه الرجل حتى مناخ الجمل وقال له « انظر يا عبد المولى . جمل لا يؤذي » . حاول هو الاقتراب لكنه خاف ، ولم يرد أبوه أن يضغط

عليه ، وتركه وذهب الى ذيل الأرض .

لعب حول المربط وحاذر الاقتراب من المناخ . طارد فراشة محومة وخاب في الامساك بها .

حدق تجاه الجمل . يقف تحت النخلة بطوله ، وعنقه الممتد حتى سطح الخص المقام على المربط .

رآه يتحرر من قيده ، خالعاً الوتد المربوط فيه . ينطلق عابراً القنطرة بجسده الأشهب وظهره العالي من غير عدة .

فوجىء الصبي فحدق فيّ وأسلم ساقيه للريح طالباً جسر المصرف ، فيما يقطره الجمل :

ـ الحقني يا أبي .

اندفع يعدو بعزمه ، والكيان الهائل يجد في اثره ولأخفافه صوت كمطرحة العجين .

كان عبد المولى يلهث مكروش النفس وقلبه يدق بصدره ، يحدق في الفراغ الممتد أمامه ويشعر بتلك المصيبة التي تطارده :

ـ الحقني يا أبي . . الجمل . . الجمل .

صاح الأب :

ـ الخزام . . شد الخزام يا عبد المولى ، واثبت مكانك .

بال الصبي بين فخذيه ، وهدر الهجين ، فيما ضاقت بينهما المسافة .

ـ اقف يا ولد .

(ووقفت ينتفض قلبي ، وكلما اقترب مني تحدر مني البول ، الا انني شعرت بشيء لا أعرفه يتصاعد من قلبي الى يدي ، وجعلني أهتف . . العمر واحد ، والرب واحد . . وقابلت الجمل . هدفي الخزام الذي قبضت عليه وشددت بكل عزم الخائفين . رجع الهجين

بظهره ، فجذبته لقدام ناضل الجمل وشرع يرف رأسه يريد سحبي ، الا أن انشوطة النار وضربات يدي جعلته يذعن وينعر .

عيّط الجمل بصوت كسير وناخ ، ورأيت لعابه يسيل على شدقه في مذلة ، ورأيت أبي يعدو ناحيتي وبيده فأسه ، ولما رأى الجمل يطلق صياحه قال لي . . بركة . . بركة . . نخخه) .

ولما ناخ الجمل وقام . . ثم ناخ وقام . . سحبه عبد المولى ، وكان يحمل بيده عوداً من التوت ، ويرفعه أمام عين الجمل ، وكان يشعر تحت رجله الحافية بتراب الطريق الساخن بينما ينظر الأب ما حدث وهو غير مصدق .

الجواد للصبي ..

الجواد للموت

عن الميلاد :

لكز أخته الغافية فاستفاقت تهرش جنبها المكشوف . . حدثها عن ثمرات التوت ، وبيض العشب ، وقوارب الورق . . حاذر أن يوقظ الجدة المنكمشة تروح في نوم كالموت تحت اللحاف القديم .

سار حتى نافذة المقعد العلوي . . رأى ـ ولم يكن يحلم ـ خلال ضباب الصباح المغلل بألق كالحليب ، رأى مهرة الدار الشهباء تصهل وكأنها تسبح في الضباب المغلل ، مسجونة بسور من حجر ، تدور دورات عصبية ، تنخُرُ دخاناً كالغبار .

هبط السلمات مسرعاً ، في ذيله اخته التي قال لها (حاذري الحجر) . . فردت عليه (انها سوف تحاذر) . . قال لها (انه سوف يصعد التوتة ويهزها) . . فقالت له (لا ، التوت على الارض غامر) .

جمعا بيضات العشب ، وامتلأت بها طرحة البنت ، فيما كانت كفه تمتلىء بثمر التوت . . أنَّت المهرة أنيناً متقطعاً . . لحظتها لمح فرجها

المفتوح يطل منه ظلفان أخضران ، وخطم أسود صغير ، فيما كان ينساب من الفرج مخاط لزج له قوام كثيف ، يمتد في خيوط ممطوطة حتى أسفل الكفل .

أخذ الصبي وارتعش . . كوّر قبضته وتحرك من جانب الجدار وأسقط من راحة يده الاخرى ثمرات التوت . . صاح مذعوراً (المهرة تلد) . هوت بيضات العشب من طرف طرحة البنت وتكسرت فيما كانت تجري نحوه . . أخذها من يدها وأشار ناحية فرج المهرة المفتوح . . قال لها (انظري) ، ولما رأت خطم الوليد ، ورأت الحلمات المتوردة بالحليب فزعت وصاحت مستغيثة (الحقونا ، المهرة تلد) .

حدق في عين الشهباء وراعه مدى اتساعها ، رأى اختلاط السواد بالبياض في حور العين الدامعة . . هتف صارخاً (يا ربي ، المهرة تلد) . ودار حولها فيما كانت تهب رياح صباحية اهتزت لها الفروع .

صاح باخته (نادي أبوك) . ولما كان وحده بلا حول أو قوة صرخ (الحقيني يا أماه ، المهرة ستموت) .

وكان صوته ينسل عبر الفجوات الطينية يطرق أبواب الدار حيث الأم والجدة ذات النظر الشحيح ، والبنت تندفع ناحية شرق البلد حيث كان الأب في حوض النجار . . على البنت الان أن تعبر القنطرة ، وتقطع حارة البحر وترى طيوراً بيضاء راحلة لها أجنحة منشورة وترى الرجال يسرحون وترى حجر الطاحون مركوناً على باب الطاحونة المقفل .

هرولت الأم نازلة السلم بيدين ممدودتين وراس مكشوف . . رأته الأم وقد شمر أكمامه وأخذ يشد ظلف المهر الوليد الذي ينزلق منه منفلتاً ، بينما المهرة الأم تدق الأرض بقدميها ، مادة عنقها الطويل ،

تجأر باختناق تستغيث بالغلام وبالأم التي تشارك في شد المهر عبر بوابة الحياة .

أطلت الرأس بعينين مغلقتين ونفرة مبلولة بمخاض الميـلاد . . صاح بأمه (شدي يا أمه ، ها هو يبدأ الصعب) . . عفر يده بالتراب وأخذ رأس المهر في حضنه وصاح بالمهرة الشهباء مستغيثاً (ساعديني) فهمهمت وضربت الأرض بقوادم من حديد .

انزلقت قطعة اللحم الطريـة الى الارض مستحمة في مـائها ، معلقة في مشيمة رخوة لها لون الدم . . حاول المهر الوليد النهوض بقوائم خضراء ضعيفة لم تسعفه ، فهوى على جنبه تهتز رأسه .

حدق بنظرة الاكتشاف الأولى وقال لأمه (مهر يا أمه . . ذكر . . انظري) .

تلحس المهرة الأم وليدها الضئيل المرتجف ، والوليد ينفر بمنخرين مسدودين بماء الولادة ، والصبي يدور حول المشهد مفتـوناً ، يستحم جسده تحت قشرة العرق ، مستقبلاً نضارة هواء الصباح من الامتداد المفتوح لأفق صحو على أول النهار وآخر الليل ، صـائحاً بـأمه (هـو جوادي وسوف أسميه « عنتر ») .

عن الجواد والصبي :

انفلق الصباح واستيقظت البيوت فوق الأرض . . هي الزروع عبر مرمى النظر وبعد النهـر تتجعد أوراقهـا وتطلق لهـاثها لـلأراضي المحروثة .

الصبي ذو الجـدائل السـود ، والوجـه المدوّر البـاسم ، والنظر الحديد ، ينهض من نومه يحمل دلو الماء ، يتجه ناحية الطلمبة المدقوقة في الساحة البرانية أمام الحظيرة العجوز ، يملأ الدلو ويخطو ناحية المهر ابن الحـولين . . يـراه أزغباً حليبيـاً ، مستديـراً ، وقد استـطالت قوائمـه

وانفرطت عفرته في كثافة شعر العذارى . . وكأنما فوجىء به يقف مربوطاً على طاولة من طين النهر بعينين تحددت سعتهما ، وبخطم ملموم مستطيل ينتهي بشفتين مضمومتين على أسنان قوية .

مسد الصبي ظهر المهر بيد حانية ، فنفر ووسّع عينيه ثم شب يصهل . . عاد ومسد ظهره فدار حول نفسه . . خرجت البنت (هانم) وحكت ظهرها بالجدار وقالت له (ماذا تنوي اليوم ؟ . . اصطبح وقل يا صبح) .

عين الصبي في عين الجواد . . خيوط من الحنين ، ومحبة النشأة ورفقة الحولين . . حظيرة في الظلام تفوح منها رائحة الوحل والروث الأخضر وزمته الحبسة . . هي الجدة تلبد تحت بطن الحيوان ، فوقها شعلة لمصباح بدخان ، تشد الأثداء الناعمة المدرة بالحليب . . يزحف هو اليها ويفتح فمه ومن الثدي لحلقه يشخب اللبن . . والمهر تحت أمه يمص أثداءها ويدق الأرض بحوافره . . هي الأيام . . الأيام . . تترى آتية بالمواسم والسنين .

ألبسه الأنشوطة فشب المهر ناحية الشمس التي تحدق في عينيه وصرخت البنت وفارقت الجدار .

انحنى يرخي الحبل المشدود ويقترب من المهر هامساً (هس . . هس . . مالك عنتر؟ . . مالك خائف ؟) .

شخر فأعطاه يده ، لحسها المهر وشد اذنيه . . طبطب على زنده فشب المهر على قائمتيه الخلفيتين .

ومن فرط ما ارتعب الصبي انقذف مصطدماً بالجدار ويده تستميت على الأنشوطة . . على صوت هبدة الولد خرجت الأم عارية الرأس مرتاعة . . رأته قرب الجدار متكوماً . . قالت له (ان ما جبت لنفسك مصيبة ، وان ما انكسر لك ضلع فلن أكون « أمينة ») .

لن يترك الأنشوطة ولن تفارق عينيه عين الجواد (أركبك كل يوم .. مالك حرنان اليوم ؟) .

نهض ونفض ثوبه وعاد يمسح ظهر الجواد ويربت عليها .. المهر يتشمم رائحة الصبي الذي يخاطبه في همس .

في اللحظة التي استكن فيها الجواد كان قد فك رباطه ، وصعد السور الموازي لظهر المهر وجعل يقول له (هس .. هس) بينما كانت يده تشد العنان .. ما ان استقر على الظهر وما ان شعر الجواد بحريته حتى انطلق الى الأمام راسماً في ضجيج وصخب ستارة من الغبار ، تتقمصه رغبة في الرمح نحو الشمس التي تصهل هي أيضاً ، يندفع دون تعب جارياً في الحقول وفي الحارات وعلى شاطىء النهر .

وحينما كان الأب والعم يقلبان (رمية) القمح .. كان الصبي والجواد يخلفان جسر المصرف وينحرفان الى طريق القناة الضيق . كان الأب يقول في نفسه (كأنه آخر الأمهر ، وكأنه آخر الصبيان)ثم يصيح في ابنه (خف عن المهر لتجيب أجله .. واحذر ان تسقيه وهو متعب فربما مشى الماء الى قدمه ، بعدها ستخسره وتبيعه فطيساً لعربجي على باب الكريم بالمركز) .

وكان الصبي منشغلاً بمهره وكان المهر يحدق في الفضاء ، وعبر الغيطان .

عن الجواد والبلد :

حيث ان الشمس تشرق من المشارق ، وتغيب في المغارب .. وأن بحر النيل لم يعد يطمى وفي شهر (برمهات) قبطي يزرع القطن .. وفي (بشنس) يضم القمح والشعير .. وتكون أيام للحصاد ، وتستكمل دورة تلد سر الخير وسر الموت .. وان الحكايا انقطعت من فوق المصاطب وان للبلدة مقبرة للأسلاف ووليا له مقام وله مزار .. وان

لها قنطرة من صخر جبلي لم يعرف أحد من بانيها تربط الغيط بالدار ، ومثوى لسكان تحت الأرض . . فان لابلد مهراً رامحاً ومثوى في الفضاء الساري ، يتواترون أخباره ويحلمون به في عز ، عز المنام .

وليد نجية الجماعة ينام في ظل شجر تيل ، على رأس غيط قطن . . أمه تمسك خطأ ، محنية الظهر تطارد اللوزات المفتحة . . الجواد يرعى على جرف قريب . . يخرج الأسود اللعين زاحفاً ، يتلوى في امتداده المخيف . . يسمم اللبن في الطاجن ، والطبخة في الحلة . . هدفه الوليد الملفوف برقع قديمة . . يندفع المهر ناحية الزاحف اللعين وبحافره يقطعه .

تجري نجيّة وتخطف ابنها وتجلس على شط المصرف . . وتبكي . . هل كانت تبكي رعبها ، أم كانت تبكي من فرحة نجاة ابنها الغافي ؟

من عند قنطرة السكرى حتى دكان عبدالجليل زايد فرح ممتد . . أسبتة مغطاة بفساتين ملونة . . طشاتي نحاس أحمر بلون شمس العصاري ، مليانة بأرز مبيّض وأقماع سكر وزجاجات شربات في لون خدود البنات . . البنات البكر بأثداء جامدة مدورة ، وضفائر طويلة كالسلب تنام تحت طرح الحرير والشيلان المزهرة . . أنغام للفرح ومغانٍ للبكارة في هواء عصاري السنين . الجواد أول الموكب وآخر الموكب . . ألبسوه كسوة من قطيفة مطرزة بخرز ملون وترتر أبيض يبرق . الكسوة مشغولة بخيوط بهيجة ، رسم للأهلة ونجمات آخر ليالي الصيف ونخل بسعف اخضر ، وطيور تطير في براح الكسوة القطيفة . . دقات صاجات وأنغام مزامير (المزيكة) النحاسية المؤجرة من المركز تجعل المهر يرقص في السترة القطيفة ، وعلى ظهره الصبي ذي الجدائل ، وأمامه خلق صاحبه وخلفه خلق ترفع الشوم وترقص مع الجواد الفارس .

الشيخ راغب الصفطاوي الساحر القديم . . فاتح المندل ، وقارىء الكف . . رابط العريس في دخلته . . ومكره العروسة في عريسها . . يلبس ثوبه (التوتل) الناسل ويكبس في رأسه عمامة وسخة تغطي شعراً أشيب . . يقف تحت ظل سنطة عجفاء وينظر المهر الرامح ويصيح (أقطع ذراعي ان لم يكن هذا المهر وهذا الولد من نسل الشياطين) .

العم سيد مرسي الطيب الصالح . . الأمين على الناس وعلى أسرارهم . . مصلي الفروض جماعة ، مؤذن الفجر في عز ليل طوبه . . يسند رأسه على منبر الجامع ويتطلع بعين ساجية يشع منها الصلاح والتقى ويشير بيده ويقص حلماً يأتيه بعد ان يتوضأ ويصلي وينام . . (هو المهر يأتي مع القمر ، في هدأة الليل حينما يكون السكون . . حيث تخلو الحارات والأزقة من ناسها . . أراه أنا العارف بما أرى ، عبر هالة من نور على ظهره خرج بعينين . . عين فيها رزق معلوم ، وعين مليئة بحبة البركة . . يقف أمام أبواب الدور ، فتفتح . . تخرج نسوة متشحات بالسواد . . يغرفن من الخرج ويملأن مخالي مصنوعة من قماش الخيام . . تكتفي النسوة ولا تنقص عين الخرج الملآنة بالرزق المعلوم وحبة البركة .

وفي ليال كثيرة متتالية كان الصبي يمتطي ظهر المهر بعد أن ينام الناس ويهجعون . . وكانت الشوارع والحارات خالية فيها تتبدى البلد تحت السماء كامرأة متوحدة ، مهجورة . . كان وقع حوافر المهر كقرع طبلة ، وكانوا يتسمعونها ، تأتيهم عبر منافذ الحلم ، حيث لا تكون الصحوة مؤكدة وتتهيأ النفس لاستقبال هبوط الروح من عوالم اخرى غير موازية لعالمهم ساعتها يظل التساؤل مستقراً بالضمير الغافي . . عن سر هذا الرباط المقدس الذي يربطهم بالجواد ومن ثم الصبي .

عن الموت :

(١)

غادرت العمة (ألفيّه) فرنها الواطىء ، محدقة في نار المحمة التي لم تهمد بعد . . القمت المحمة الحطب الصائف وتمخضت بشاشها من أنف مـدبب كمسمار . . نفضت مـا علق بثوبهـا من دقيق الخبيز . . ضربت جدارها بيدين عجوزتين وصرخت وحدتها (متى تأتي شياطين الجن ؟) زام الهواء في قش السطوح ودارت بالتراب الزوابع . . عبق الدخان واندفع من المحمة (ملتفاً يـدور صاعـداً السطوح من المنـور الضيق متوزعاً على الدور المجاورة) .

وجهها الكالح العجوز به فم خال من الأسنـان ولها عيني هـرة هائجة تنظر بها للآماد البعيدة .

(وفي الليل تلتف بسوادها وتخرج مكفنة بالظلام ، لا تنظر خلفها ولا تلقي السلام . . تكنس العتب وتتلو الطلسم ، وتدفن الأعمال في فتحات المقابر ، وعلى جسر النهر تحادث القمر) .

« ملعون الأب ، والأم ، والبنات البكارة »

قالتها وفتحت (قاعة) معاشها ، وبرقت عين الهرة في الظلام .

((جاري ملعون « سلامة » وأولاده . . وجارتي ملعونة « أمينة » زوجته)) .

صعدت سلم الطين تكحت كآبة سلمها بأظافرها .

« (عبد المولى) تدهسه حوافر فرسه الذي سيدفنونه جيفه » .

القمت الوقيد لفرنها فتوهج بالنار . . سمعت من البعد ركض الجواد الجامح فخطت تصعد سلمها .

في الزمن الذي كانت تقف فيه العمة (الفيه) على سطح دارها شامخة الرأس ، مفكوكة الشعر الذي تعصف به ريح مفاجئة ، تهب من ناحية المغارب ، تحدق بعين القط ـ عينها ـ كان الجواد وسط الساحة ،

وفي اللحظة التي التقت العينان ـ عين الجواد وعين العمة ـ صهل المهر مستغيثاً ، وشب على خلفيتيه ثم هوى على جنبه في ارتطام مروع ولم يقدر على النهوض .

انفجر ضحك كأنه السحر ، وكانت العمة هي التي تقف في وجه الريح على سطح دارها قبل المغارب .

(٢)

في البدء ضرب الجواد جدار الحظيرة برأسه . . بعدها تتابعت نطحات الجدار حتى تورمت رأسه . . تنهد أهل الدار حسرة ، وبكى الصبي تحت الغطاء ، وحُبست البنات بالغرفة وأقفلت .

هزل الجواد وصام عن الزاد ، وفكوا قيوده فاستقر بركن في الحظيرة ينطح الجدران .

ينهض الصبي ويجلس تحت بطن الجواد وبقلبه شعلة تضطرم . . يسوي له (عراقة) من خيش يلتف بها جسد المهر المحموم ، والصبي ما برح يستعيد أيام العدو نحو الشمس وفي الغيطان .

خرج من الحظيرة واستقر على عتبتها ، نصفه في النور ، ونصفه في الظلمة . . بكى جواده الذي يشيخ فجأة ، والواقف في ظل الموت .

اذن العصر وبعد أن ام المصلين الشيخ (حسن النواوي) فقيه البلد العارف بالله ، سحبه نفر من الناس . . مشوا بحارة (الساقية) الى زقاق (البداروة) وعبروا قنطرة الجامع حتى وصلوا الدار . . أخذ الصبي يد الشيخ الكفيف فمسح بها رأس الجواد وظهره . . تلى المعوذتين وآية الكرسي والصمدية وطلب للمهر الشفاء . . أمّن الناس وراءه ثم سحبوه ومضوا من حيث أتوا .

حضر (محمد فرج) جساس المواشي . . فتح فم المهر وعاين لسانه ، وشد جلده ، ورأى في العين حمرة ، ومسح بحر العرق عن

جسد الجواد ثم وجه الكلام للأب (الجواد نار) . . وأمر نساء الدار أن تغلي فولا ورجله خضراء ، وتخلطه بشيح وبذر كتان ، وأن يسقوه للجواد على ريق النوم . . خرج من الزريبة ونظر للجميع وقال (ربنا المنجي) ثم رفض أن يتعاطى أجراً .

من أول الزمان لآخره ، يأتي الليل ، فتدور الوطاويط ، وينعق البوم ، ويفر فأر من كوم سباخ لجسر مصرف ، وينبح كلب بلا صاحب أو وطن ، ويمضي الليل ، ويلم البلد شمل النجوم ، ويشتد حصار الوقت .

(أمينة) الأم . . سيدة الدار . . الربة المقيمة على رأس العالم الصغير . . ترتب فرش العيال ، ثم تحلب الجاموسة ، وتقطع الجبن خرطاً صغيرة بحجم راحة اليد ، وتشعل مصباح الوسط ، ومصباح الباحة ، بعدها تنام الدار وتهمد .

تسحب الليلة (شالية) من فخار قديم ، تملأها بتراب (الفرن) . . ترص القوالح وتجعلها في شكل هرم ، تغذيها بورق (غلاف) الكيزان . . تعلو النيران ثم تهمد الألسنة ولا يبقى سوى الجمر . . تحمل (شالية) النار وتخطو ناحية الزريبة .

تبسمل وتحدق في الظلام الذي يغيّب الجواد الرهوان . . تخرج قطعة (الشبة) التي تلمع في وهج جمر النار . . هي والحظيرة والجواد ، في قلب الليل . . تتخطى العتبة وتواجه المهر المريض بداء الحسد والكراهية . . يقف الجواد في ضوء لمبة الجاز مطرقاً ، عرقاناً ينطح الجدار (ما لك يا عنتر ، ما الذي جرى لك ؟) . . تضع قطعة (الشبة) وبخور الصندل في الجمرات . . تسمع تشيش حريق المادة في صوت منفحم ضرير . . يعلو دخان الحريق ويعبق في تعريشة سقف الزريبة . . تدور بالاناء حول الجواد الذي استنشق رائحة البخور .

« رقيتك واسترقيتك من عين حسود شافك ولا سمى » .

استوت (الشبة) امرأة عجوزاً ، متفحمة تلتف بالسواد ولها عيون هرة . . هتفت الأم :

« هي . . ساكنة الدار الواطية . . جارة الشؤم » .

بكت الأم عجزها عندما نظرت الى الجواد غارقاً في الصمت والعرق . . أطلقت صوتاً كالعديد :

« قلت لك ع الجسر ما تمشي . . عين الحسود تضرب ولا ترخي » .

رجعت بظهرها عندما رأت الجواد يرقد ملقياً بجسده الى الارض ، ماداً عنقه كالذبيحة وقد غرغر ، واتسعت عيناه وبدتا في الضوء الشحيح منطفأتين .

حاذرت الأم أن تصطدم بالحجر ، وجذع التوتة ، والسور المهدم ، وطلمبة الماء ، وخافت أفعى الجحور التي تعرف انها الان تدحرج جوهرتها أمامها زاحفة من سطح لسطح .

دخلت على الأب الراقد في أرض (المندرة) . . قالت له « المهر يموت » . . قام ومسح وجهه واستعاذ من الشيطان واستعان بالله على الموت المفاجىء . . قال لها (انه سوف يذهب غداً للمركز ويحضر طبيب الصحة البيطري) قالت له (أن لا يتعب نفسه فقضاء الله نافذ) رد عليها (بأن عليه أن يسعى وعلى الله العوض) .

في النهار حضر الطبيب المداوي . . كشف على المهر وأخبرهم بأن المهر مريض بمرض معد ولا بد من اعدامه .

(٣)

ما الذي يجري اليوم في البلد ؟

كأنه يوم القيامة .

كل تلك الصفوف من الرجال والنسـاء والعيال ، تتسحب من الأزقة والحارات الى طريق المدار .

مَنْ سرَب خبر فرقة الاعدام الى كل البيوت ؟

زوج من العسكر وصول ، وثلاث بنادق لكل بندقية روحان ، موكولون بخطف روح المهر . . يخطون بالقرب من قنـطرة المشروع ، ويبدون في ملابسهم الكاكية الصفراء كسمازى الكلاب .

يـطول من خلفهم صف الرجـال والنساء والأطفـال ، يثيرون التراب ، ويفزعون الطير المهاجر ويسدون عين الشمس .

من يحاول أسر روح الجواد الرامح أبداً عبر الشمس ؟

بكت بنت قرب النهر ، وألقمته حجراً فاتسعت دوائر الماء .

المدار في أرض (نعمان) على شاطىء النهر ، تحت بطن ساقية قديمة خربة . . تمتد الأرض البور سبخة ومهجورة ، تنبت في جنباتها نباتات الشيطان ، وتعمرها ديدان حمر شرهة .

الجواد ينتظر الرحيل حيث القطعان الحرة في السماء .

قال العم (لنبدأ . .) . . تململ الأب ومضى يشد حبل التيل ويلفه حول ارجل الجواد المستسلم . . دار الأب بالحبل على الجسد ، فارتجف الجلد بعد أن شعر بخناق الأعنة تجز على الجسد الذي ضمر .

رمى الأب بطرف الأنشوطة الى العم فأحكم وثاقها على كاحلي الجواد ومتنها .

حث الصول ذو الوجه اللحيم القاسي والشارب المفتول والأزرار النحاسية وصاح (اسرعوا . .) رد الأب الذي يشد الوهق حول رقبة

الجواد (حاضر . .) ودار حول الجواد يساعده العم والأيدي العفية . .

وفي اللحظة التي قال فيها الصول (شدوا . . ارموه . .) كان مهر الأيام الماضية يتهاوى ، حيث انقلبت الوجوه ، وتطلعت اليه العيون من فوقه . . اهتز وحاول النهوض . لكنه لم يقدر .

وجوه لنساء غامضات العمر تحدق في الدائرة . . أطفال لا تلعب في الزحمة حيث شدها المشهد فوقفت متراصة ، مشدودة بحبل الخوف . . رجال هجروا البيوت والغيطان في مشهد وداع المهر الأخير .

وحده الصبي (عبد المولى) ينظر الى مهره الراقد على جنبه برأس مفتحة ، وذاكرة مطفأة . . مشى حتى أبيه وشده من ثوبه وقال له مسترحماً (بلاش يا أبي . .) . . نظر اليه الأب ولم ينبس فاستغاث بعمه وارتمى في حضنه باكياً . . صرخ الصول (ابعدوا الولد . .) . . أبعدوه خارج الدائرة وبقلبة تنتفض أيام الركض ونهارات البركة .

صرخ . . (بلاش يا أبي) . .

صاح الصول (استعد . .) فارتفعت أشداق البنادق بظلام يغشي العيون . . تحدد الهدف وسط الرأس وعند حبة القلب . . قال صوت الصول . . (اضرب . .) فانفجر صوت الطلقات مدوياً . . حفرت في الرأس وفي القلب حفرات غائرة ، يتدفق منها دم يشق له مساراً في خطوط على الأرض حيث بلل الأقدام وخضب الثياب .

تصاعدت من فم الجواد آهة آدمية مغللة ببخار حار . . صرخ (عبد المولى) وتشبث بصدر أبيه . . فيما كانت بالفضاء العالي تحوم غربان وحدءات ناشرة اجنحة من ريش ، مدفوعة بحدس فطري نحو رمم الجسور ومهاوي المرابط ، نعيقها المبتهج في قلب الصبي الحزين إعلان ببدء الوليمة المؤجلة .

قال لأمه : عندما أغمض عيني أرى طائرات من ورق في البعيد ، وبالونات ملونة تطير معلقة في خيوط ، وأسمع صوت البحر .

ضحكت الأم وضربته على مؤخرته وقالت له : تريد أن تذهب للمصيف يا عكروت .

صفق بيده وقفز عالياً وقال : هيه . . هيه . . البحر . . البحر .

انفلت من حضنها ولمعت عيناه ببشر مفاجىء حينما رأى من الشرفة جريان السحب .

عاد للصالة ونظر وجهه المبتسم في المرآة ، وسمع من البعد صوت الهدير .

على الشاطىء ساعد أبويه في غرس الشمسية ، وفرْد الكراسي . اخذته الشمس الى بعيد فغنى لها وامتلأ صدره بهواء البحر ، فيما تعلقت عيناه بالموجة العالية . صاح بأمه :

« البحر » .

جرى واستقبل فورة الموج ، واستلقى على الشاطى تغمره المياه ، نهض يرش جسده ويطلق اصواتاً مرحة . عاجله البحر ورمى به حتى

شمسية ابيه . أخذ من الموجة المفاجئة وخاصم البحر .

سوَى على الارض قلعة ببرجين ، لها فتحة كالباب ، ونافذة في مواجهة البحر ، يحوطها سور . وحفر داخل السور حفرة ملأها بالماء ، وشتل على جوانبها نباتات من البحر . هتف بأبيه :

« القلعة » .

نظر الأب ناحيته وابتسم .

ضاق بالقلعة فسواها بالرمل وقال لأمه :

« الموج عال » حذرته :

لا تذهب الى بعيد .

تمرغ في الرمل وأثار عفرة ، رفع الأب رأسه من فوق الكتاب وأزاح نظارته ونظر الى ابنه المعفر وزجره قائلاً :

« اذهب واغتسل » .

رفس الطفل الرمل فطار حتى الشماسي المجاورة ، غطى والده وجهه وصاح فيه :

« يا كلب » وتصايح المصيفون .

اندفع يجري ضاحكاً ، ثم تعثر وسقط على وجهه . بعد قليل اطلق طائرته المجنحة والمرسوم عليها « سوبرمان » فاردا ثوبه الأزرق المطوق بالأحمر والذي يمتلىء بالريح ، وتنظر عيناه تحت القناع الأسود الى الفضاء البعيد . خلف الطفل المشاكس تنطلق أطفال من عمره في حزمة من أجساد حية نابضة ، رافعين جباههم حيث الطائرة المجنحة و « السوبرمان » بينما يشد هو الخيط الممتد والأطفال يصيحون :

« الطائرة صاعدة للشمس » .

الشمس تبدو لهم زهرة صفراء .

لم خيط الطائرة ولفه على اليد البلاستيك ، حتى اذا ما هبط

« السوبرمان » احتواه الى صدره ثم عاد الى أبويه تحت الشمسية . وضع يده على ركبة امه العارية ، ونظر في عينيها وقال :

« البحر مبسوط » ردت عليه :

« اخر انبساط » هزّ رأسه وابتسم .

دس يده في الحقيبة الجلدية واخرج « سندويش » واستفهم من امه :

« مربة ؟ » فردت عليه .

« مربة » .

قضم لقمة ودفعه اليها غاضباً وقال :

« اريد لانشون » ردت مبتسمة :

« عندك اللانشون » .

بحث في كيس الطعام حتى عثر على الساندوتش . أخذه وسار ناحية البحر يأتيه صوت امه محذراً :

« لا تذهب بعيداً » .

سار يقضم طعامه حتى اذا ما وصل مكان الجرف الذي بالشاطىء توقف . . سمع صوت الموج ، وشم رائحة الماء والملح ورأى قبالته الجزيرة الصغيرة التي يضربها الماء برغوة فوارة ، والأفق الأزرق يمتد حتى مدى الشوف . تمنى أن يركب البحر ويذهب الى البر الثاني . رأى سرباً من الطيور البيضاء فابتسم . تقدم ناحية الماء فرش جسده . ابترد . قال :

« أح . . الماء بارد » .

انحسر الماء فكشف عن الرمل المبتل . انتظر عودته محاذراً . . عاد الموج وضربه فرجع حتى آخر مد الماء . رجع البحر فجرى خلفه يسبه بأمه وأبيه :

« ملعون أبوك يا بحر ، وملعونة امك » .

عاد البحر وضربه ، فرفع رجله ورفسه ، انتشر الرذاذ في الشمس التي كانت زهرة .

اندفع البحر تجاهه صاخباً . . ومعابثاً ولطمه فملأ عينيه وفمه بالملح والماء ، جرى ناحية الصخور حتى عثر على حجر ، ملأ به كفه والقاه في وجه البحر ، وصاح :

« خذ يا بحر » .

لما رجع البحر ركله بقدمه الصغيرة فغفى الموج لحظة فوق رمل الشاطىء ، ثم تنفس في مساحة الامتداد عبر الأفق البعيد ، وجاء فائراً مزبداً لكن الولد هرب منه وقال له ضحكت عليك يا بحر . وكركر بصوته الرفيع .

زحفت غيوم الشمال تحملها الريح في الظهيرة ، والتي لا تكف عن دفع الموج في حركة منتظمة طوال الوقت .

اندهش لما رأى الماء يفترش تلك المساحة التي لا تبدو لها آخر ، لاشيء سوى الموج وصوت الهدير ، يرتفع ثم ينكسر ، ضارباً الجزيرة الصغيرة التي تبدو أمامه كمقبرة .

تذكر ان امه كانت قد قالت له :

« ان هذه الجزيرة موجودة قبل الناس والمدينة ، وربما من قبل ان يخلق الله البحر » . وقالت له ايضا : ان السندباد كان يربط بها سفينته عندما يرغب في أن يستريح « وعندما سألها » ان كان السندباد ما يزال يعيش ؟ قالت له : « انه لم يرجع من اخر أسفاره » .

وضع يده أمام عينه وانشغل بشعاع الشمس الذي يبرق على الماء .

غافله الموج وصفعه فارتمى على ظهره متشبثاً بالرمل فيما ينسحب

من تحته حافراً مساراً .

خاف لما رأى البحر يحتشد فهرب ، يلوذ بالسور الحجري ، فلما انحسر البحر بال عليه وضحك ، لكنه صمت فجأة عندما رأى البحر يغيض ، متراجعاً بظهره ، متجاوزاً الجزيرة والشاطىء ، كاشفاً عما يجهل المصيفون .

انتبه الناس لانحسار الماء ، وزحفت الصفوف من الخلف حتى استوت في قبضة الدهشة . لم يستطيعوا كبح روعهم المفاجىء حيال الانحسار الذي وقع في الزمن غير الملائم ، خارج لحظة التصديق وحسابات المد والجزر .

صاح واحد :

« سبحان الله القادر » .

« البحر يغيض » .

بكت سيدة من الهلع ، ومن الرؤية المفاجئة .

« لم نسمع عن ذلك من قبل » .

دار الولد حول نفسه وعفر الرمل ، كأنه احتفال ، هذا ما شاهده الناس .

بهجة من لون . . صدى لأصوات منغمة تأتي بصفير الريح . . حشا البحر مكشوفة للعيون المحدقة .

أسفل الجزيرة باب على كهف ، قديم وموشوم برسوم بدائية ، وخطوط لكتابة مجهولة على شكل صور لحيوانات وتنانين نافخة للنار . . أزهار ملونة بلون أخضر كأعشاب البحر تمد أوراقها ككفوف مفرودة ناحية الشمس . . باب كهف الجزيرة مفتوح على ظلمة مفضية لظلمة أشد عتامة ، تسبح فيها حيوانات بأذرع وعيون مستطلعة . . في الجانب الأيمن من الجزيرة يمتطي فارس حصانه الأدهم المسرّج بسرج من الجلد

المشغول بالفضة ، والملجم بلجام النار ، والفارس يحمل بيمينه سيفاً من حديد مسنون ، مطموس اللمعة ، يعلوه صدأ الماء وفـوات السنين ، مرتدياً زرد الحرب ، شاداً لجام الفـرس ، مستقرة قـدمه في الـركاب المشدود ، كأن الفارس غاف من زمـان على الجـواد الملجم وكأنهما في انتظار ما لا يعلمان . . قوقعة صفراء اللون يحملها حلزون ويدب ناحية العمق البعيد . . جراد الماء الشفاف الذي يمكن الرؤية من خلاله يسير في صف متوحد ناحية باب الكهف الموارب . . ثعـابين البحـر الملونة تجلجل تحت بطن الصخور بأجـراس لها صـدى في العمق البعيد . . سفينة غارقة لها مجاديف على شكل ازهار اللوتس ، يقبع على مقدمتها تمثال يوناني يشير بيده حيث لا أحد بينها يجلس ربانها المنتمي للعصور السحيقة أمام دفة القيادة ناظراً للتمثال . غناء لعرائس البحر ساكنات الماء المشتاقات . . كنوز من ذهب وعقيق ومرجان داخل صندوق عليه كتابة قديمة بلا معنى سوى انه « مقدور على العباد الموت » . . عرّافـة تجلس أمام جفنات طوالعها وتبدو كالمبتسمين في صبر السنين .

وضع المصيفون أصابعهم في آذانهم ، يهربون من صوت الغناء المحاصر .

الولد وحده هو المنتبه ، المدرك ، والـذي يعدو في المسـافة التي انحسر عنها البحر بيده يمسك الحجر ، وبقلبه شجاعة المطارد ، يصيح بصوته الضعيف الذي كانوا جميعاً يسمعونه « البحر خاف . . البحـر خاف » .

صرخت امه :

« ارجع . . حاسب . . ارجع » .

الا ان البحر المخادع كان قد احتشد من جديد ، والتهب موجه واندفع ناحية الطفل غادرا وخوّانا ، وأخذ يتلمسه ويدور من حوله حتى

اذا ما وجده أخذه في حضنه وذهب به الى بعيد .

لكنه لما عاد حيث الناس والشاطىء والونس كان وحده من غير الولد .

من سنين عدة والمسرات قليلة في هذه الأنحاء .

فذاكرتي المشوشة لم تعد تعي انني ضحكت من قلبي طوال تلك السنين . فمنذ ارتفع نجم اللوطي ، والجزار ، ومالك العقار ، وراقصة الملهى ، وكاتب السيرة ، والمؤرخ الكذاب ، والبانكير ، في سماء الوطن السعيد : تأكدت من تغيّر الأحوال . وقلت في نفسي : انتبه ، عليك بالبحث عن الشيء المغاير .

على أي الأحوال ـ وبرغم هذا الحزن المقيم ـ اندفعت امارس هواية غريبة ، ومثيرة للضحك والدهشة : تتلخص في نقش التواريخ على قطع الخشب القديم ، الذي عليك لكي تعشقه ، ان تضحي بزمنك الذي انت فيه وتفتح قلبك لتحادث السنين .

وكنتُ ألبد متخفياً حتى تخف الرجل وتهمد ، ولا تبقى سوى مصابيح قليلة مضاءة امام البيوت ، فاخرج من مكمني محاذراً وأتسلق الجدران وانتزع قطع الخشب من الواجهات التي اكون قد عاينتها سابقاً ، واعود بها حيث اعيش ، فاذا ما فتحتُ باب شقتي ودخلتُ ،

جاءتني رائحة زمن محبوس ، مختلطة برائحة ما جمعته من اشياء حية لا تندثر .

وكنت اسحب دكة قديمة بشكل يثير الرثاء ، لها ارجل قصيرة مزخرفة بنجمات سباعية ، تحوطها زهرات متصلة بفروع ممتدة . وأكون قد شغلت « فوتوجراف » عتيق رُكِّبتْ عليه اسطوانة مشروخة معبأة بغناء تركي يشدو بتلك الأمانات التي تضنيني الى حد البكاء ، وأظل أتأمل الصوت وأتساءل عن : معنى الحنين المكتمل ، وعن الشموس التي أشرقت لكنها مضت .

تدق الساعة العتيقة في فراغ الصالة دقة واحدة فأنظر ناحيتها ولا اعرف ان كانت الساعة منضبطة ، ام انه اختلاط الأزمنة وزحمة الوقت . وأمضي ليلتي غارقاً في نشوة تنمل جسدي محاولاً أن اتحرر منها خوفاً من الرعب الذي سرعان ما يحل بقلبي بعد أن تفارقه نشوته .

يدركني الصباح فاسمع صوت القطار المفارق ، وأرى في السماء سحباً ، وأتهيأ للنوم مُمنياً النفس بحلم قديم .

في الليل أصعد الجبل ، وأرى الحي القديم غافياً بحضنه ، فانزل الى الشعاب التي تفضي لشعاب اخرى ، فاذا ما سرت فيها رأيت جامع السلطان ، بقربه ينام شحاذون ، يرقبون على مبعدة ظل الحرس الواقفين تحت المصابيح .

وفيما كنت أخطو متمهلاً في تجوالي ، متوغلاً بغير ارادة حتى قابلني طالب العلم ، وامرأة عجلى وفاتح الكتاب ، ورئيس العسس .

أفعمتني رائحة البخور ، ومشيتُ في غيطان الزنجبيل ، التي طرقها موشومة بحصباء ملونة .

ومنذ عرفت انه لا يدوم سوى وجه الله ، تأكدت أيضاً ان لا شيء يضيع ، خاصة في هذا الليل الذي بلغ ثلثه الأخير حيث يتهيأ

ـ هو ـ جل جلاله لينتقل من الظلمة الى النور ، وانا اقف امام احد ابوابه القديمة بالقرب من المصباح الذي ينير لي ما سوف أنتزعه . نظرت ـ بصادق الود ـ عبر الحارة وهتفت طالباً الستر .

وعندما تسلقتُ السور وانتزعت من المشربية نجمة الخشب ، عصلج المسمار وصرخ ، ولا اعرف لماذا اطلت امرأة من نافذة بيتها وصرختْ « حرامي » وأدهشتني السرعة التي تجمع بها الناس .

وكنتُ انظرهم وأنا معلقاً بين دار الله في السماء ، وبين الارض التي أنبتتْ كل هذه الخلائق ، وسمعتهم يصرخون فيّ « انزل يا حرامي » ونزلت زاحفاً على الجدار بجسدي ، محتكاً بالنتوءات البارزة والتي كانت تدفعني في صدري من غير رحمة ، أنا الذي أحبها بكل أيامي .

ما ان هبطت على الارض حتى ركلني أحدهم في جهازي فانحنيت من غير وعي مني ، وقبضت عليه ، ورفسني آخر في وجهي بقدم عارية فسمعت صوت تكسر عظام ، وزعق قلبي من الألم ، وبرقت دوائر من الألوان المختلطة ، بعدها هوت علي الضربات من الأذرع المدربة . لا أعرف وهم يضربونني لماذا تذكرت أمي الميتة ؟ وشُبّه لي انني اسمع صوتها .

زفوني في الزقاق محاطاً بسخريتهم ، تأتيني أصواتهم مع صفير اذني ، وسمعت رجلاً يتكلم عن الشرطة والقسم القريب ، ولما سألتهم « لماذا ؟ » نظروا ناحيتي بعداء وصرخوا في وجهي « مد يا حرامي » ، ورأيتهم ينحرفون ناحية الزقاق المكتسي بالظلال ، خارجين الى الميدان الواسع ، ورأيت باباً يفتح ويطل منه عجوز أشيب الشعر ، يرتدي قفطاناً من الشاهي ويقف مستنداً على الباب ، ولما سألهم : « ما له ؟ » ردوا عليه « حرامي » هز رأسه وابتسم ، وسمعته يتمتم « حرامي »

ما الذي يريد أن يسرقه ؟ . لم يعد ما يسرق . لقد أخذوا كل شيء وجدته يعود الى الطبلية الواطئة ، التي تستقر فوقها مكواة بيد طويلة ، مضى زمانها ، وفيما كنت أبتعد كنت أسمع دقات المكواة في الليل لها صدى .

بالميدان شريط لترام بطل استعماله ، وضريح لست المقام . على الرصيف ينام قرويون مستندين على زوّادات مدفوسة داخل مقاطف وأسبتة من غاب .

القسم بناء قديم أسسه خديوي مات ودفن بمدافن الامام . شدتني صورة الملاك المفارق ، واللوحة الجدارية ، وخط النسخ المستقيم . لم أكن مطمئناً ، وكلما نظرت خط الدم المنساب من أنفي ضاعت ثقتي ، وقلت للذي يقبض على يدي « انظر ، الملاك » فهتف « نعم . استهبل يا لص » .

صعدنا درجات القسم الثمانية ، وتحت مصباح المدخل رأيت دمي على صدري ، وقميصي الممزق الذي يثير الشفقة .

قصوا على الضابط حكايتي فلطمني على وجهي ، وصرخ يسألني : عن اسمي وعنواني ومهنتي . ورد عليه آخر « حرامي يا بيه » . ولما صمت لطمني لطمة اخرى وقال لي : « رد يا ابن الكلب » .

مسحت نظارتي المضببة ، وتأملت وجهه الذي ذكرني بوجوه الحلاليف بمعلف المقطم ، فابتسمت ، ونظرت في وجهه . لطمني وصرخ في وجهي « يا فاجر » . قلت له « ان لا شيء يضيع ، وان ما يبدو له ميتاً هو حي بدرجة مروعة » . لما اندهش وهز رأسه غير فاهم كلمته عن الطواويس والنار الفارسية وحروف النسخ ورائحة التراب .

لما انتهيت مصمص شفته وسمعته يهمس « شيء محزن » . ووضع يده على كتفي وصرف الناس الذين لا يفهمون .

أجلسني الضابط أمام مكتبه وطلب لي شاياً ، ومسح عن وجهي دمه . صرفني محذراً وما ان وصلت الباب حتى سمعت رفيقه يسأله « الى أين ؟ » فرد عليه باقتضاب « الى المصح . ملعون أبوه » .

خرجت للشارع فآثر النور أن يطلع ، وحينما نظرت ناحية الشرق همست « ربما ستمطر بعد قليل » .

بعد حادثة القسم استعضت عن تسلق الجدران بالمرور على محلات التحف القديمة .

كان شارع « هدى شعراوي » الأثير لدى . بيوته ذات الطراز الواحد ، ومسجده الفاطمي ذي الايوان الواسع والقبة الهائلة ، التي تواجه أبراج الكنيسة التي تقرع أجراسها بذلك الصوت الجليل .

كنت أقف أمام واجهات العرض مفتوناً بما أرى . أحصيت عدد المحلات ، وعرفت أهم ما فيها من قطع . أرجعت كل قطعة الى زمانها وطرازها . صادقت أصحاب المحال وجالستهم ، وسمحوا لي بتصوير ما أردت وحفظته مصوراً بشقتي مع قطع الخشب والاسطوانات المشروخة والكتب الصفراء .

ولما تحولت معارض التحف الى بنك ومطعم ، وجراج ومحل لبيع المركبات ، وشركة سياحية ، نصحني اخر التجار ، وقال لي « عليك بالمزادات » . برغم فقري المزمن حرصت على حضور تلك المزادات بعد أن عرفت عناوين صالاتها ، والأحياء التي تقع فيها ، وتتبعت تواريخ البيع بهوس وانقطاع ، وملأت حافظتي باعلانات الصحف التي تحوي اسماء ما يعرض .

هدفي اليوم فيلا « بجاردن سيتي » كنت قد قرأت عنها في أهرام الأمس . رأيت النيل وتذكرت ماءه المخضر وقلة « الخزين » . وكلما اقتربت من الفيلا تفتح عقلي وامتلأ صدري بنشوة السير في الهواء ،

اللواتي يسرن على الشط في ملابس وشرائط ملونة . قلت هن « للمزاد ؟ » فانفجرن ضاحكات من هيأتي الغريبة ومنظري المشوش .

قابلني « معلم اللاهوت » عند منحنى الشارع . رأيته يقف تحت الشجرة يضع تحت ابطه كتاباً بحجم كبير ، ناظراً للضفة الاخرى من النهر ، يلبس مسوحه السود ويتدلى على صدره صليب من الخشب ، منقوش عليه المسيح المصلوب ، بيده الاخرى سبحة من كهرمان أصفر . كلما اقتربت منه أصبحت ملامحه واضحة ، وارتسمت على شفته ابتسامة راضية وقنوعة . وقفت أمامه فقال لي « الى أين ؟ » فقلت له « للمزاد يا أبي » . ابتسم لما ناديته بأبي وأخذني من يدي فتسللت الى برودة كفه وقلت « شاخ » فقال لي مبتسماً « هل قلت شيئاً ؟ » . هززت رأسي نافياً ، ونظرت في عينيه جُسْتُ بين الصوامع ، وأسرتني الممرات ، ورأيت الأجساد الرهيفة ، العجفاء تنتظر بمرارة من الوف السنين . شعرتُ كأن القيامة سوف تقوم وأنا أسير فوق أرض غير محترقة ، ناظراً الى المدينة من ذلك العلو البهيج .

قلت له « لكم أنت هرم يا أبي » ابتسم وانحنى على اذني وقال « سنوات العيش في الدير » .

أدهشني عندما فتح صديريته ، وكشف لي عن صدره ، حيث رأيت وشماً لسيدة رائعة الحسن . قلت له « انني لا أفهم » فرد عليّ « عليك بالمثابرة » فكلمته عن المستحيل وقرع الأبواب الموصدة ودموع الملعونين ، وشرحت له دائي الذي لا شفاء منه . رسم على صدره الصليب وقال « سوف ترى بنفسك تغيّر الأحوال » .

تركته يزرر صديريته وينظر تجاه النهر . خُيّل الي انني سمعته يصدر صوتاً كالبكاء .

آن لي أن أستجمع نفسي وأحث الخطى ، فلقد اقترب الموعد .

فيلا ببوابة من حديد أسود ، مشغولة بحراب لها رؤوس مدببة . تتوسط سوراً من حجر منحوت ، متوشج بزهرات الياسمين ، ومبرقشة بألوان تتضوع روائحها عبر الليل ، وعبر الممشى المبلط والمرسوم عليه دوائر ونجمات بنية وسوداء من الفسيفساء اللامعة . أشجار محملة ببرتقال لم ينضج بعد . يستقر تحت الشجر ـ على أرض الحديقة ـ تمثال من رخام وردي لغادة هيفاء تعزف على قيثارة ، وتنتمي للجواري المغنيات ، برقبتها ورقة معلقة باشارة للبيع . نخلتان من فضة تتدلى منها بلحات تنير ، وتستقران على أول درج صالة المزاد .

سمعت لغط المزايدين ، وتنشقت رائحة عطر هندي ، وسمعتُ عزف قانون ، وضرب مفاتيح بيانو صافية .

قرأت على واجهة الباب « انظر قبل أن تبدو البدايات » .

نظرتُ وتمعنتُ ووضعتُ يدي على قلبي الخافق ، وتحسستُ ما بجيبي من قروش . صعدتُ درجتين فقرأت « لو كشفت عن وصف النعيم ، أذهبتك بالكشف عن الوصف » .

هل أحيا الأيام التي خلت ؟ وهل في قدرتي تخيّل وجه الله ؟ ، وأسبح في أزمان من لؤلؤ (غايتي أن أستحوذ على زمن يضيع) . هل سيظل قلبي مشغولاً بما فات ؟ ، وأسيراً لظني الثابت ؟

دخلت من الباب فأدهشني ما رأيت .

خليط من البشر في ملابس موحدة . يرتدي الرجال ملابس السهرة السوداء ، وتتجلى النسوة في فساتين مفتوحة الصدور ، تلمع فوقها حلي بارقة في نور الصالة المتوهج .

عندما دخلت حدجوني ، ثم صمتوا ، لكنهم سرعان ما واصلوا حديثهم .

كأنني أعرفهم . رأيتهم من قبل . تلك الوجـوه ذات الملامـح المشتركة ، والبسمة الواحدة . كل هذه السحن قابلتني من قبل . ربما في الرسوم ، أو في احدى مراسم التأبين .

رأيتهم يبتسمون بمكر ، ويشيرون ناحيتي . انشغلت عنهم بما على الجدران وفوق الرفوف .

مزهريات صينية ، ولوحات في أُطر قديمـة من عصور خلت . شمعدانات وأثاث قديم مكدس بجانب الجدران . قناديل الزيت التي أضاءت القصور عبر فوات السنين ، تشع الان في منح النور وتبدو كما لو كانت داخل موكب جنائزي عريق .

صعد المنادي وضرب بمطرقة على طاولة ، وبدأ فتح المـزاد من خلال مكبر صغير للصوت :

ـ اثنان فاز سيفر نابليون ، مرسوم عليهما سيدة بيدها سنبلة بفرع من ذهب وفرع من فضة ، من قال . . الف

ـ الف ومائة . .

ـ الف وخمسمائة . .

ـ الفان . كل فازة بألف .

رد المنادي :

الفـان . . من يزيـد . . الفان . . يـا بـلاش . . ألا أونـا . . ألا دو . . ألا ترى .

حل الصمت ، ورسيت الفازتان على آخر المزايدين .

ـ صالون أبيسون فرنسي لويكانز ، مرسوم بصور ناس زمان ، ومعه ترابيزة استيل معشقة بالفضة زمن نابليون الأول . من قال أربعة آلاف ؟

ـ أربعة آلاف وخمسمائة . .

ـ خمسة آلاف . .

ـ ستة .

ردد المنادي . .

ـ ستة آلاف . . ستة آلاف . . يا بلاش . . مبروك .

توالت التحف معروضة في النور ، وهجمت الأزمان واختلطت .

سجاجيد كاشان وشينواه واصفهان وظل السلطان . سجادة مدورة طولياف ومستطيلة أبريز بخيط ذهب وصورة لطاووس فارسي فارداً ريشه بالقرب من نافورة ماء ملون . اثنان من عبيد فينيس أسودان بعيون بارقة . لوحة يابانية برسم ساق شجرة بالخرز الغالي وزهور لها تيجان امبراطورية . تابلوه قديم لرسام مجهول بالباستيل لقلعة على البحر في مواجهة سفينة بشراع راحلة في موج عال . شمعدان ونجفة أورسر خان طراز تركي نوّرت صالات رقص السلاطين وتطوحت في نورها الجواري المغنيات . . مرآة ببرواز أرابيسك من خشب الورد مطعمة بعاج وصدف بحار الصين . تمثال لبوذا سينواه يجلس على كرسي حكمته ويبتسم . لوحة متر × متر رسمها فنان كان يعيش في الاسكندرية منتصف القرن الماضي « الفان . . يا بلاش . . الاطار وحده بهذا السعر . . نظرة للون الرصين وعراقة القديم » . صورة لصوفي يعتمر عمرة من الجوخ ، وتحدق وسط وجه مكدود عينان تشعان بألق من حريق . . صورة بالأسود الشيني للمسجد الأقصى يطير فوقه طائر شبيه بالعقاب وقد نشر جناحيه ، وسقط ظله على القبة .

أبعد الدلال الميكروفون عن فمه وسكت . . نظر تجاهه الناس وسكتوا .

ـ مفاجأة المزاد . ارث الجدود للحفدة . .

رفع صندوقاً وأخرج منه مشكاة مسلسلة بسلاسل من فضة بيضاء تنتهي بمشبك . بجانبها الأيسر فصان من زفير نجمي ، وفي الأيمن سطر مكفت بفصوص ثلاثية من عقيق وزمرد وفيروز ، وفوق الكتابة يستقر حجر كريم ضوي كنجم عندما واجه النور .

قرأت السطر الأول « اعرفني معرفة اليقين » .

دق قلبي ، واحتبست أنفاسي وطفح عرق بارد على جبهتي .

ـ مشكاة نور . أضاءت الليالي المنقضية ، ونوّرت بلاط الملوك ، ومخادع الحريم ، وخيام الفرسان ، وخانات الوراقين . من قال بعشرة آلاف ؟

بدا المزاد في الذروة ، وأُخِذَ المزايدون . شملهم صمت المفاجأة . وسمعت عزف القانون وتوسدت حشايا الحرير وأنا أنظر نور المشكاة التي تنير من غير زيت .

تحسست جيبي ، ولعنت أيامي ، ثم تمالكت نفسي ، وخرج صوتي مني متردداً أول الأمر :

ـ عليّ باثني عشر . .

ارتفعت همهمة ، وبرز واحد منهم بفودين أشيبين ، وسلسلة تنتهي بقلادة زرقاء . ابتسم لي وقال :

ـ عليّ بخمسة عشر . .

صاحت امرأة عارية الصدر :

ـ مذبحة .

ـ التحفة تساوي . .

صحت بالصوت الواثق :

ـ عليّ بعشرين .

رسا المزاد على العبد الفقير ، وسمعت امرأة تهمس لأخرى

« سمسار لغني » .

طلب مني الدلال الدفعة المقدمة ، فأمهلته حتى احرر الشيك . جلست على فوتيه في الركن وانتظرت .

انفض المـزاد آخر الليـل ، ووجدتني وحـدي وصـاحب المـزاد والدلال وحراس الصالة .

لما قال لي الدلال « أين الشيك ؟ » قلت « أي شيك » اتسعت عينه واستغرب . نظر تجاه صاحب الصالة وهمس في اذنه « نصاب » . . رد عليه الرجـل « أو مجنون » ضيّـع علينا فـرصة ، احبسـوه في مخزن التحف ، والنهار سلموه للبوليس .

فلما حُبِسْتُ نفسي في العتمة الخفيفة ، وجلستُ بين مخلوقات الله في وفاق مشبوب بالضنى قلت : لا وقت أبعد من وقت . وللزمان حلول في الزمان . وتساءلت : عن مدى ارتباطي بتلك الأشياء المكـدسة ، وسمعتُ صوت الآذان ولم أكن غفوت . كنت أجلس عـلى سجادة ، يمنحني المولى كبرياءه ، فيما أسمع عزف القانون بالنغم المغربي ، وأرى راقصة من البورسلين تخرج من بين التحف وتهتز على نغم القـانون . حدقت في السقف فرأيت المشكـاة تنير ، تقـطع الحجرات في دورات نورانية ، تنير من غير زيت في استحكام النغم ، تكشف عن رجل نحيل يخطو على أرض من رمل وينظر حيث تلوح شمـوس غاربـة ، وكأنـه السندباد المصنوع من الجص الملون وقد أقلع بسفينتـه الى بلاد جـاوه البعيدة ، مخلفاً شطوطاً من السندس في تجربة عاليـة الرقـة . وكانت رحلته تلك التي قصها قد أثارت استنكار حفنة الأدعياء ، فقراء الخيال الذين بدو لعينه اضحوكة دائمة ، لأنهم لم يستطيعوا أن يفهموه . انه من آخر سلالة من أصحاب البصائر الذين يعيشون على الحلم ، فعلى قدر ما أفهمهم ان العالم ليس لواحد ، وأنه رغم استدارته ، عوالم كثيرة ،

وأن البدايات لها في آخر المطاف نهايات ، وانه ـ أي السندباد ـ قادر على ركوب السفن والخوض في البحـار ، والتحديق في الشمـوس حتى لو كانت غاربة ليرى على البعد المدن المغولية ، والقباب الأيوبية ، ويسمع أسماء مثل بخارى وسمرقند ، حتى بدا لنفسه وللآخرين وكأنه ولطول ما عشق جوقة الجوهر غدا من قصاصي الأثر التليدين .

مالذي يدفعنا نحن نزيلات عنبـر الأمراض المستعصيـة الى أن نكون فارغات الصبر الى هذه الدرجة المحزنة ؟ .

مع اننا لم نعد نمتلك سوى الانتظار .

تحتوينا غرفة ذات جدران مدهونة ببياض كالح . موشوم بغبرة الموت ، خلف بابها يستقر حوض غسيل فوقه صنبـور ، مركب عـلى فتحته انبوب مطاطي يشر منه الماء ولا ينقطع ، نجلس على أسرّة من حديد ، نرد باب الحجرة كلما أطلت علينا شبهة من أمل (آه . . بقية من قدرة على تذكر ما تفيض به الذاكرة من صور ماضينا) .

أراهن مستلقيات على الأسرّة، يعصرن أيـاديهن ، مدفـوعات بمشاعر المفارقين ، ينظرن عبر النافذة المفتوحة حيث يستقـر في حوش المبنى محول الكهرباء الاضافي يفح التيار ، ويحذر من الاقتراب :

ـ حل موعد الزيارة ؟

ـ الساعة الثانية .

ـ هم يأتون في الثالثة .

ـ من ؟
ـ الزوّار .
ـ وهل سيجيؤون ؟
ـ ربما .

اذ تمعن النظر فستجد بجوار الجدار الأيمن سيدة تغطي وجهها بطرحة (أسميتها ذات الطرحة السوداء) تغادر سريرها وتفترش على الأرض بطانية رمادية ، وتجلس ممدودة الساقين ، تخرج من تحت وسادتها صورة لطفل يلبس نظارة طبية يحدق من خلف زجاجها ويبتسم ابتسامة صغيرة بيضاء ، تسقط على جبهته خصلة من شعر طويل أسود . ترفع رأسها عن الصورة وألمح عينيها تقول لي (من يدري لعل الحظ لم ينته بعد) .

علمت انه طفلها الوحيد ، ولم يزرها من زمن ، حيث كان يخاف عليه أبوه أن يرى وجه أمه المستور تحت الطرحة السوداء المسدلة .

بجوارها تجلس ذات الثدي المضروب . عروس في عامها العشرين . تنظر من النافذة على النيل فترى على البعد الاهرامات ، والعمائر العالية ، وصف الشجر على الكورنيش ، وصائد السمك العجوز الذي يحرك صنارته بصبر الانتظار الطويل .

كانت قد جاءت للعنبر من شهور ، تسندها أمها ، وكنت قد سمعتها تقول (لو استطيع أن أبقى بالبيت) وعندما خطت داخل العنبر ورأت ذات الطرحة السوداء وقد انتُزع فكها السفلي ، تتغذى بواسطة قمع مركب في فتحة ببطنها ، صرخت ، فهرولتُ ناحيتها وأخذتُ بيدها وأجلستها بجواري .

من يومها أحببت تلك العروس التي كنت أسمعها وهي تستحم تحت الدش تترنم بأغنيات ، لم أكن أقدر على أن اقاومها ، تستقر بقلبي

مع الوجع وتجعله يركض بهلع ، أغان عن أكواخ بعيدة فوق قمم جبال شاسعة ذات خضرة ، وقيعان أنهار ينتشر فيها الحصى البارق ، تحت شمس كبيرة هائمة (**أشم رائحة الأنحاء التي غبت عنها منذ أسرى داخل برج حظي في هذا البناء العتيد**) .

ـ لا تحملي همي يا أمي ، وانسني .

وكنت أحوط كتفها بيدي ، وأجفف لها شعرها الطويل وأهمس في اذنها :

ـ هوّني على نفسك أيتها الأخت .

على أسرة ذات أضلاع من الحديد ، مثبتة ببرشام ضاغط كدمامل صغيرة ، ينام حثالة من المريضات ، تنقسمن الى الغائبات عن الوعي بالتخدير ، واخريات لم يعد المخدر يفيد في تسكين آلامهن ، يتألمن من خلل عصبي ، منسل عبر الخلايا الشرهة والتي لا تعرف الشبع .

مرّ عام علينا في هذا العنبر ، عيّدنا فيه عيدين . العيد الصغير امتلأت حجرات العنبر بالزائرين ، وخفقت فيه الطرح الجديدة ، والأثواب الملونة ، ولعب الأطفال في حديقة المستشفى . في العيد الكبير شح الزائرون وغابوا .

وكنت أنظر النزيلات وهن جالسات على الأسرة ، رؤوسهن ساقطة فأنتهي الى الاعتقاد أن الأمور لم تعد محتملة .

تأملت ساعة الحائط المعلقة في الصالة الخارجية ، والذي يقفز عقربها فوق ميناء بيضاء معقمة ، فيما تتحرك النزيلات بين الأسرة في انتظار حلول الليل حيث تطفأ أنوار البناء الا المصباحين المرشوقين أعلى سور البوابة الخارجية حيث نسمع من هناك هبوب الريح وصوت ممرضة الوردية في الممر ، وهي تصفق الباب قائلة (كل شيء على ما يرام) ويتردد صوت نهنهة لامرأة وحيدة كأنها خائفة من العتمة .

وكان الطبيب قد مرّ عليّ بالأمس وفحص جسدي ، وحينما تأملت وجهه الصغير الرقيق وجدته يضغط أضراسه ، وتتجهم ملامحه وسمعته يهمس لنفسه (الطفح . . الأكزيما) ثم عاد وابتسم عندما رآني أحدق فيه متسائلة وواصل كلامه (على أي حال أشعة الكوبالت ستتكفل بكل شيء) وساروا بي على سرير بعجل عبر الردهة التي أبوابها خضراء ، وسقفها بلون الجير . . سعلتُ وانتفض قلبي . . قلتُ : (اللعنة كأنني ضحية أيامي) . وحجرة الكوبالت تطن كمحلج . ترتفع من جنباتها موجات عالية التردد . أزرار في الجدران ذات عيون مثقوبة كأعشاش النحل . في الوسط تستقر طاولة كطولات المشارح ، تطل عليها كشافات بحزم الضوء الباهر . أنام على الطاولة عارية الجسد ، موشومة بطفح كبتلات الورد ، وأسمع صوت الكهرباء يتسلل الى جسدي ، وتصهرني طاقة بلا اذن مني ، ولا قبل لي على تحملها . أصرخ (ما الذي فعلته بي أيامي . . كأنني الضحية) . تثقب فخذي الابر وأهتف بهم « اكتفيت » تلتهب خلاياي وأذوب في الضوء وصوت التردد . يوسدوني سريري غائبة عن الوعي فأفيق في الصباح منهوكة ومحترقة .

دخل العنبر مدير المستشفى ، يشعل غليوناً وينفث دخاناً له رائحة مميزة ، يلمع جبينه العريض ، وينوس منظار أبيض على أنفه المدبب حيث تستقر تحته عينان كليلتان . حاول أن يبدو مرحاً ، وقريباً منا .

أخرج من جيبه كشفاً وقرأ عشرة أسماء (كان اسمي بينهم) .

قال الطبيب :

ـ تبعاً للتقرير المكتوب من الأطباء ، ورغبة منا في اسباغ الراحة عليكن قررنا ترحيلكن للضاحية القريبة .

قلت :

ـ الرحيل ؟

صمت ونظر ناحيتي ثم قال :

ـ نعم . . الرحيل .

همهمت السيدة المصروعة بالحمى ، وأطلقت كلمات بلا معنى .

قلت :

ـ رحيل بدون بهجة . عاد ليؤكد :

ـ الضواحي مكان للاستشفاء . هناك ستجدون الراحة . أستطيع أن أقول . . انني أتكلم كصديق ، وليس كطبيب معالج . ان شراهة الخلايا شيء صعب . أعني . . في امكانكن تقدير الأمور . ان الأمر في أحيان كثيرة خارج عن ارادتنا . . في الحقيقة . . أنا أعني . . أود أن أقول . . ما يهمنا هو محاولة وقف التدمير الخفي . في ظني ان ارادة الشفاء مهمة جداً .

قلت :

ـ متى سنرحل لنموت يا سيديْ الطبيب ؟

رد عليّ وقد فاجأه سؤالي :

ـ ما هذا ؟. من تكلم عن الموت ؟. الأعمار بيد خالقها ، والضواحي أماكن للأمان .

شردتُ وهمستُ لنفسي (ومرافىء للريح والوحدة) .

سمعته يتحدث عن الخضرة ، والعلاج الطبيعي ، والرعاية المركزة بمعرفة ناس على درجة كبيرة من الخبرة .

صَمَتَ لحظة ، وأشاح بيده . اكتسى وجهه بقلق واضطراب ، ثم ابتسم :

ـ على أي حال . الانتقال هذا المساء .

في العصر تجمعنا في الفناء نحن العشرة . أنا وخمسة محمولات على

نقالات والباقيات مدفوعات على كراسي بعجل . نودع المستشفى الذي كنا نظنه محطتنا الأخيرة لسوء طالعنا .

بعد ساعة من المسير رأيت فيها الحي القديم ، وسور الحجر العالي ، ومجرى العيون ، والنصب التذكاري للجنود الراحلين ، والقطار الذاهب الى بعيد مبتعداً عن المدينة التي نودعها من غير فرح . بكيت لما سمعت صديقتي العروس تغني (لا تحملي همي يا أمي وانسني) .

وصلنا مبنىً قديماً من البيوت المصادرة من طابقين ، غير مهمل وله أناقة نابعة من طرازه الرصين . يستقر وسط حديقة مخضرة أسفل تلة عالية موشومة بشجرات نارية الزهور ، وَمُسَيَّج بسور من شجر الضواحي الكثيفة .

جهزونا وأنزلونا من العربة على محفات ودفعوا بنا داخل المبنى العتيق . وعندما كانوا يحملونني ويدخلون من البوابة رأيت تحت شجر الحديقة نساء مختلفات الأعمار على كراسي بيضاء ، فيما تفترش الأخريات العشب . اقتربت رؤوسهن في همس ، في حين توقفت أيديهن عن أشغالهن الصغيرة .

بعد اغفاءة الظهر نظرت من شرفة العنبر وتعرفت على المكان . . طريق مترب يصعد خلف تلة . . أرض مزروعة بنباتات بقلية على امتداد النظر . . في السماء طيور مشرعة الأجنحة . . بناء صغير أشبه بالحظيرة يجاور بيتاً قروياً من الطين .

قلت : (آخر المحطات) . تنهدت وأغلقت عيني لأنام .

بعد أسبوع دخلت في الغيبوبة مرتين ، ورأيتهن يتجمعن حولي ونفوسهن دموع تسخن العنبر الذي يضمنا .

في المساء راجعت أشيائي الصغيرة التي أضعها في حقيبة . .

مصحفي الطاهر ، ومبخرة فضية برؤوس مماليك سبع ، والتي أوقدها وأحرق فيها بخوراً كل مساء ، ثم رزمة الرسائل المكتوبة بأسعد أيامي .

اتجهنا الى الشرفة ، ورأينا العم « جرجس » البواب يجلس على كرسيه معمماً بشال أبيض ، يمضغ لحم صدغيه الذي يستر فمه الأدرد .

ـ كيف حالك يا عم جرجس ؟

ـ بخير .

ـ وأخبار الناس في الدنيا . مضت أيام ونحن في العزل .

ـ الدنيا ، والناس على ما هم عليه . لم يحدث شيء .

ويصمت محملقاً بعينيه الكليلتين عبر التلة ، ويأتي بارداً من بعيد هواء المساء .

أغمضت عيني فتسلق الشاب الشجرة حتى الشرفة (كأنني أعرفه) . كانت تنبت لحيته ويرتدي لباس من طراز مضى ، ويتمنطق بحزام من الجلد . قلت له : (أنا أعرفك) . فقال لي : (بالطبع) ، ووضع يده على جبيني وأضاء شمعة . نور الشجر وكأنه غُسل بماء المطر . ميّزت فيه حلمي ورسائلي الملفوفة بشريط الحرير . . قلت : (لا تذهب) فابتسم وقال لي (انني في انتظارك) .

فتحت عيني فغاب عني وجه الفتى . أغمضتها لأستعيده ، لكنه كان قد راح . همست (ضاع) وبدت لي السماء غامضة .

الفجر عقدت رأسي بمنديلي ، وأسندت رأسي للوسادة ونظرت عبر النافذة ناحية التلة . . في السماء النجوم ، وفي الانحاء كلاب عاوية . . أغمضت عيني متيقظة ، أقاوم آلامي وأتذكر فجري البعيد الذي كان له في الأيام الماضية لون الحليب . . أرى نفسي أركض عند النهر ، أطارد طفولتي التي ترحل وسنواتي التي تنتزع مني . وبرغم ما أنا فيه الا انني أتشبث بمنحة الحياة الأخيرة ، وأسمع قلبي يشرق في اللحظة

التي بلا أحكام مؤكدة ، وعلى رغم ارادتي أشعر أنني مدفوعة لأهبط منحدراً يقود الى مرج تغرب شمسه .

فتحت عيني كان النهار قد أسفر قليلاً . وبدت في الطلعة الأولى الأشياء .

حدقت . . كان يقف هناك ، يشغل حيزاً من الفراغ ويرسل الي أول رسائله .

هل كان هنا من زمن ؟ . . لم أنتبه له الا هذا النهار .

خار بعد حين بصوت جاءني كأنما يحمل روحه ، وخيّل الي انه يذرو التراب بأظلافه .

لكزت العروس التي تنام بجانبي فتنهدت ونهضت . أشرت لها بيدي وقلت :

ـ هل تشاهدين ؟

رفعت رأسها ووضعت يدها على عينها وقالت :

ـ ماذا ؟

قلت لها :

ـ هناك . .

ـ ثور أسود . ما له ؟

ـ هل كان هناك طول الوقت ؟

فقالت لي « انها لا تعرف ، ولم تلاحظ ذلك » .

وفيما كنا عاكفين نمعن النظر ، ويتسرب الينا نوع من الغرابة المختلطة بدهشة الاكتشاف ، لمحنا رجلاً يرتدي السواد ، ملثماً يخرج من الكوخ يدعس في خطوه أغصاناً جافة ، ثم يجمعها في حزم يضعها بالقرب من الثور ويشعل فيها النار التي توهجت وامتدت ، وظهر حرم الثور على اللهيب منضغط اللحم ، مشدود العظام .

قلت « انه هناك » قالت « نعم هو هناك » .

مسحت براحتي عرقي ، ومددت كفي من النافذة أتحسس الهواء .

خمدت النار ، وحومت فوق الثور فراشات الحقول . سحبه الرجل وهبط التلة الى حيث لا نعرف .

تكرر المشهد في الصباح والمساء . . هيأت نفسي أن أقف باحثة بعيني في النواحي . أراهما قادمين ، يسحبه من مقوده ويخطوان على التراب ، يمران من أمام المبنى ، فاذا ما خار تسلل خواره عبر أروقة البناء مفعماً بخوف يخفق له قلبي .

زادت فترات اغمائي ، ونحل جسمي وبدأ شعري في السقوط .

زارني في المساء الشيخ (نور الدين) ورأيته يدخل من الباب يرفل في قفطانه الكتاني ، وكان العنبر معبقاً برائحة البخور ، تحت ابطه يستقر الكتاب وبيده حبات من الكهرمان . هممت لأسند ظهري لكنه أشار لي بأن : استرح . . جلس على حافة السرير ، وقرب لحيته البيضاء من وجهي وسمعته يدعو لي بالشفاء . نظرت في عينيه الضيقتين ، فحدثني عن الأمانة والكتاب المؤجل . . قلت له : (أخلع ثوبي وأتركه على عتبة داري) . بدا عليه انه لم يفهم . . قلت . . (الموت تخلى من الاله هنا) ابتسم وقال (الصبر) .

نظمت مواعيدي على رحلة الثور ، يجيء من حيث لا أعرف ، ويذهب الى حيث لا أعرف ووجدت ونساً غريباً عندما أضع ذقني على حافة النافذة وأنتظر أن أسمع خواره في المكان .

نهضت عند الغروب وحدي . خرجت من العنبر ، واجتزت الصالة الواسعة . كان ألم جسدي لا يطاق . هبطت درجات السلم الرخامية ، ورأيت على الجدران صورة لجوقة من العازفين . خلف

البوابة الخارجية وعلى العشب الطري جلست ، يشدني مشهد الثور مع مقدم الليل وهو رابض فوق التلة . أصغيت وأعطاني النور آخر منح الحياة .

رأيت الثور يخلع وتده ويطلق خواراً ممزوجاً بالبخار ، ثم يدور على التلة مثيراً نفرة من التراب . كانت الشمس خلفه راحلة ، مخلفة حمرة من غير ما حرارة . اندفعت القوة المحبوسة في اللحم الحي ناحية البناء . لم يكن العم « جرجس » موجوداً في المكان على البوابة الخارجية . اندفع الثور حيث أجلس . كشط التراب بأظلافه ، وامتدت اذناه الى الامام مصغية لصوت الريح ، فيما تدور عيناه بالمكان .

كنت أجلس على العشب بلا حول ، بعضاً من عظام أمضها الألم ، عندما جاءت ضربة القرن المسنن تحت ثدي الأيمن فقلت « حملته بين جنبي من زمان » . وجاءت الضربة الثانية تحت ثدي الأيسر فقلت « وسأحمله حتى آخر المطاف » ، وحجبت الظلمة البغيضة عن عيني وجه الرفيقات اللائي يتناهى الي من بعيد صوت عويلهن .

ضاعت من أمام عيني التلة ، والدرج الحجري والسهل الممتد . . قلت :

« كل هذا قبل أن تسيء الى أيامي » .

فيما بين الظلمة والفجر ، تدرج النسوة صاعدات الى سطوح الدور ينشرن طرحهن السوداء في الريح ، وينظرن من خلالها فتبدو الدنيا مكتسية بسواد الطرح الخافقة .

كانت تقرع الكفوف النحاس فيتردد صدى الطرق على الأبواب :

« ولدي يموت ، وَيُنتَزع كبدي . افتحوا الدور » .

هبطت النسوة الدرج . كن حاسرات الرؤوس ، يضربن صدورهن بأيادٍ كالمخالب ، ويغصن في ليل كالعمى ، وعلى السطوح ما تزال تضرب الريح الطرح المنشورة .

« يا الهي القدوس ، هذه ليست صرخة لكنه الوجع » .

انزاحت حملان الصوف المعبقة بالعرق ، وانتزعت الصرخة الأجساد من مراقدها .

« ادفعوا الموت عن ولدي » .

بدا أول النهار على أرض المجاز ، الذي يفصل الدار عن

سياجها ، نعش من خشب أصفر بأربعة أذرع وظل ، ومصباح صفيح كتميمة قديمة يستقر في نهشة بجدار الطين . من بطن النعش تفوح رائحة شيح قديم ، وعطر رخيص باذخ ، وذكرى لموتى راحلين .

« ولدي » . .

ولم تذرف دمعة .

قبضت بيدها على خناق جلبابها ودارت في البيت برأس مشعث ، وكف مفرودة وهي تصرخ :

« آه » .

شلشلت بطرحتها وتحركت ناحية النعش فزحف خيالها حتى استقر فوق الكسوة الحرير . طفقت تصرخ بلا دمع في وداع ابن الثلاثين .

بعد تجهيز الجسد للدفن بمراسيم الشريعة ، استند ضرير للجدار وتلا الآيات بصوت كسول .

« ولدي » . .

دقت صدرها بقبضة الذئبة الثكلى . صاح أحد الرجال :

« اكرام الميت دفنه ، والدنيا هذا النهار حارة » .

توقف قارىء العتب عن اهتزازه ، وانبجس ضوء الشمس خيوطاً .

ألبست النعش طربوش ابنها المفارق . سوّت زره بيدها وابتسمت . أحاطت الطربوش بلاسة من حرير أشهب ، وبسلسلة فضية تنتهي بساعة جيب متوقفة وبحزمة من الخوص ، وبزهرات بيضاء وضعتها في مقدمة النعش .

سكتت لحظة مطأطأة الرأس فوق الكسوة ، ثم رفعت عينيها للجمع وحدقت فيه ، حيث كان يتوزع نفر قليلون بجوار السور وعلى

أرض المجاز وبجانب النخلة ، وصاحت فيهم :
« ولدي أزفه للموت » .
أطلقت زغرودة جلجلت كالجرس .
انبهت المشيّعون الذين أخذتهم المفاجأة ، وتمتموا آسفين .
« ابني الوحيد الذي من صلبي ، يذهب حيث أبيه » .
وأطلقت اخرى .
« جنت المرأة » .
قالها رجل في عبه ، ومسح دمعته الساقطة .
عادت بعد أن وارت وحيدها التراب ، في ذيلها نسوة البلد .
كانت صامتة ، مزمومة الشفتين تنظر الى الأفق البعيد حيث البراح على الأرض البور المتوحدة في ذلك الزمن البعيد .

وقفت أمام بابها وشدت جسدها الفارع ونظرت حفنة الدور . بيوت عشرة . بيت على الترعة وخمسة في الجوار ، وثلاثة في حضن بعضها البعض ، ثم بيتها بالقرب من المسجد الصغير ، فيما تبدو ساقية بقواديس من فخار موروثة ، وعلى البعد تلوح أخصاص تصفر بقشها الريح البدائية ، ومن خلفها يطل شاهد قبر ابنها الواحد .

دخلت دارها وأغلقت الباب .

مرت من الأعوام عشرون ، وهي مسجونة بارادتها . خدمتها أختها كل تلك السنين ، تذهب اليها مرة في الصباح ، ومرة في المساء ، فتطعمها وتسقيها ثم ترد عليها بابها .

في العشرين سنة الأولى تمادى النيل في الزيادة . كان ذلك في شهر صفر الذي يوافق شهر مسرى القبطي وظل يفيض حتى ثالث أيام النسيء ، فاختفى الزرع وبدت البلد كقوارب عائمة . وهبت فيها ريح القبول ففسد طلع النخيل . وكسفت الشمس مرة . واختنق القمر

مرتين وذلك لاختلاط البروج . وحوطت الدور الجديدة الدور العشرة القديمة . وشق طريق يصل البلد بالمركز وسمع دق اجراس في مدرسة أقيمت على عجل . واختير للبلد عمدة وشيخ للغفر ومأذون . وسار على السكة أول طالب علم .

وعندما ودعت اختها الدنيا ، ومع آخر لقفة نفس أمسكت بيد بنتها وهمست لها « وصيتي خالتك » خدمتها بنت الأخت من السنين عشرين . فكانت تزورها مع الغروب حيث تخطو ملتفعة بطرحتها بجانب الجدران كشبح .

في العشرين الثانية وقعت بالكفر أول جريمة ثأر ، واعتدى أخ على أخته فقطعوه بالبلط وراح دمه ، وَوُلِد طفلان من سفاح ، وعمت الدودة الغيطان ، وسرحت على الأوراق وعلى شطوط الترع ، وزحفت حتى باحات الدور ، لدرجة أن الخلائق كانت تجدها لابدة في المراقد وعلى المخدات وداخل فرش المنام ، ولما ضاقوا بها استعملوا السموم فبادت طيور كانت موجودة في الكفر منذ الأزل ، وشُرِعَ في بناء المسجد الجامع بقبة ، وخلاوي عشرة ، وحمام وطلمبة بعجلة من حديد وصهريج على السطح ، ولما تم البناء توفي العارف بالله الشيخ « أيوب » ، ولما ظهرت له كرامات خارقة ، ومعجزات تُحيِّر الألباب ، دُفن تحت القبة داخل ضريح مزدان بالنقوش ، وصار الجامع مزاراً ، وامتد على شاطىء النهر شريط لقطار أسموه الفرنساوي ، والذي كان يطلق صفارة في المساء وصفارة في الصباح ، وتسوّرت البلد بالشجر وبدت الأرض في ذلك الزمن مضيافة وطيبة القلب .

وكنت قد تجاوزت العشرين ، أحلم دون أترابي بالمستحيل ، وأعشق الخرافة والحكايا القديمة وأرغب في الولوج خلال الأبواب المغلقة ، باباً بعد باب ، واحاول بكل الصدق التعرف على الحقائق

البسيطة المدهشة .

وكانت تأسرني حكاية السيدة التي بلغت التسعين من العمر ، والتي كانت تَمُتُّ الي بقرابة من بعيد ، والتي حاولت أن أطرق بابها مرة فحذرني شيخ المسجد وقال « اياك المرأة مخاوية » ولأنني تخلصت من الخوف بالمعرفة سخرتُ من الرجل وعزمتُ على أن أنتهك وحدة العجوز مهما كلفني الأمر . وعندما قابلتني بنت بنت أختها سألتها « ما أخبرها ؟ » فنظرت ناحيتي بنظرة عدائية وتجنبت طريقي ، وفي مرة ثانية قلت لها « خذيني معك » . ولما ردت علي « الى أين ؟ » قلت لها « عند العجوز » . دفعتني في صدري وقالت لي « لا تطاول وحاذر » . ولما انصرفت من أمامي وَوَصلتْ الى الباب نَظَرتْ ناحيتي ، فَهَرولتُ تجاهها لكنها أغلقت في وجهي باب الدار .

ولما كنتُ مغرماً من صغري بتسلق النخيل ، لذا تسلقتُ نخلتها المائلة من فوق السور ، حيث هبطتُ على سطح دارها . بيت نصف سقفه من السعف ، تقشر كلسه وضربت الرطوبة جوانبه . رأيتُ على السطح صومعة للغلال ، وحماماً لا يطير ، وأرانب انفلتت مختبئة تحت الخيش وصف الطوب المركون للجدار . شعرتُ برجفة ، فالى أين يقود هذا السلم الهابط ؟

فتحتُ باب السطح ونزلت الدرج ينتفض قلبي . كان أول ما أحسست به رائحة شيح ، ثم هبت نسمة رطبة وأنا أهبط الدرجات .

فجأة توقفتُ عندما شاهدت ضفيرتين مجدولتين من شعر أثيث أبيض ، ورأس غافٍ على أول درج السلم . همست « هي » . أحست بي فانتبهت وحركت جسدها فيما يستقر على صدرها صندوق من خشب تحتضنه كفاها في اصرار . تحرك الرأس تجاهي فرأيتُ الوجه وقد كسته

« ازيك » فأطلقت نباحاً ومدت يدها ناحيتي وكـأنها تدفعني بعيـداً ، فذعرتُ وشعرتُ كأنني مدفوع الى فراغ مخيف . رجعتُ بظهري حتى النخلة التي أخذتني وأسلمتني للأرض . تنشقت الهواء وعند مروري بالوسعاية تطلعت اليّ النسوة بشك وبشيء من الريبة .

بعد انقضاء ثلاث من السنين ، هبت ريح السموم من الغرب ، وعتمت الدنيا ثم أظلمت ، وهـطلت أمطار في غـير أوانها ، واهتزت الأرض هزة خفيفة فسقطت دار من الدور العشرة الأول .

سمعت من يصرخ :

« فتحت العجوز باب دارها » .

عبرتُ القنطرة عدواً ، ظهري لسبيل الماء المبني على شط الترعة . تساءلت « هل آن الاوان لأسبل عينيها وأواسيها لحظة أن تحتضر ، أنا الذي جئت بعدها بعد انقضاء هذه السنين » .

وكانوا لفرط دهشتهم قد رأوا الباب يفتح من غير توقع ، وتهب من داخل الدار رائحة بخور ، وصنـدل محترقـان ، ويسقط من منور السقف حصيرة من نور مفروشة على أرض مكنوسـة ومرشـوشة بمـاء خفيف .

وصلت واجف القلب . كانت تقف بالباب حاملة على ظهرها سنينها ، محلولة الشعر الذي كان يصل حتى فخـذها ، تـطوحه ريـح مواتية ، وكنت أرى في عينيهـا ذلك البـريق الذي خـوفني ، تحتضن صندوق الخشب المصدّف ، والمطعم بالعـاج . سمعتها تُفلت صـوتاً كالنذير ، أتى الي عابـراً العتبة « آن الأوان » . لم افهم واقتـربت منها مستفهماً « يا الهي لقد انقضى زمن طويل » .

قالت بصوت واضح :

« احضروا الشيخ «رضوان» اللحاد » .
قالوا لها :
« الشيخ «رضوان» مات » .
قالت :
« احضروا ولده » .
قالوا :
« لحق بأبيه » .
قالت :
« وحفيده ؟ » .
قالوا :
« هجر دفن الموتى » .
ردت بلا انزعاج :
« ومن يواري الموتى التراب بالكفر » ؟
قالوا :
« اسماعيل زايد » .
قالت :
« احضروه ، حتى لو كان عظماً في قفه » .

قبل أن تختفي داخل حجرتها ، نظرتْ ناحيتي وكأنها تعرفني ، وسمعتها تتمتم « مثلي من سلخ عمره من الزمن ، لا يموت الا عندما يريد » واختفت خلف باب حجرتها .

اجتزتُ المجاز ، ووطأتُ ظلال العريشة المبرقشة بزهرات اللبلاب البنفسجي ، ورأيتُ قرب السور قطاً يغتسل بلسان من ورد . حدجني بنظرة خضراء وماء ناحيتي كاشفاً عن مخلب وناب .

عندما وصلتُ كانت مسجاة على ظهرها ، وكنتُ قادراً في الضوء الساقط من النافذة على رؤية آخر ومضة من عينيها وفي قلبي يهدر صوت « سلام على الريح ، سلام على التراب ، تلك امرأة من أيام خلت » .

سمعتها تقول « الولد . . الولد . . ابعدوه عن النهر » .

أدركت انها ارتدت لأيامها الماضية ، وانها ما تزال تعيش امومتها الأولى .

قالت لي « انها سوف تذهب » فقلت لها « بدري » فقالت « بدري من عمرك » وابتسمت عن أسنان من لبن . قلت « كأنما لم يعد شيء يفرحها ، ترحل مدركة أن امتلاك العمر حلم مستحيل » .

بدأ الشيخ يتلو بصوت ضمخه الحزن ، وبعد أن انتهى لقنها دعوات عجلى وتنحى جانباً .

أعطتني الصندوق وقالت « هذا لك » وغامت الحياة في وجهها . تَتَبعتْ عيناها الشاحبتان خط الموت الذي يشق الان طريقه ، تدركه الحواس بارث الفناء ، يخطو من فوق القنطرة الخشب ، التي يجري من تحتها الماء الى مستقر بعيد ، طامساً آثار أبناء آوى المنطبعة في وحل المراوي هناك حيث تجثم الجبانة التي انتثرت في أعداد كثيرة ، تفصلها دروب مزروعة بأشجار تتعرى من أوراقها المصفرة .

سكنت المرأة القديمة فقلت « ماتت » .

تأملتُ الصندوق . له رتاج من فضة ، وعلى جوانبه فصوص العاج والصدف تنتشر تحت زهرات ملونة . « من أين جاءت به ؟ » .

فتحت الصندوق وأخرجت ما فيه .

صابونة عرس . . حق من رمال بيضاء . . خصلة من شعر أسود . . مكحلة من فضة مرودها على شكل نجمة السماء . . صورة باهتة لولد مبتسم ، على رأسه طربوش . . ورقة مالية بمائة جنيه ، خضراء ومشروخة من الوسط ، ملصقة بورقة شذت حوافيها وبان من

تحتها القدم ، على الورقة رسم لمئذنة تسيح وسط الخضرة الباهتة ، أسفل المئذنة تاريخ قديم وحروف لكتابة منتظمة ، وأرقام تشي بأن الورقة ذات المئذنة ضربت في عهود مضت ، وأنها لم تستبدل في عهود تليت ، ومن ثم توقف التعامل بها من زمان ، حيث كانت داخل ذلك الصندوق الذي رافقها كل تلك الفصول .

والآن لنمـرح مثـل الطيـور الجـارحة
وننتزع مسراتنا بالنضال العنيف »*

ـ استر عرضي يا خالة « هانم » الله يستر عرضك . .

كبشت الخالة ضفيرتي البنت ولفتهما عـلى كفها وشـدت الشعر الأثيث الغامر حتى سمعته يطقطق في يدهـا ، وانداح الألم في عـروق البنت فطار عقلها وقالت للمرأة في ذلة :

ـ شدي يا خالة وقرطي . أنا اللي أستاهل .

صاحت الخالة فيها وقد زمت شفتيها ، وارتسم خطا الغضب من أسفل أنفها حتى ذقنها المدبب ، واهتز قرطها الهلالي :

ـ يا خاطية .

ركعت الشابة جاثية ، ممسكة بذيل هدمة المرأة مستجيرة :

ـ غصب عني يا خالة . خدعني بدني .

---

* من « روايات الحياة الحديدية » لأندرو مارفيل .

أشاحت الخالة برأسها وهي ما تزال قابضة على ضفيرتي البنت :
ـ العار أطول من العمر يا خاطية .
حررت الضفيرتين ، وأعطتها ظهرها ، ونظرت عبر النافذة فرأت على البعد حدأة مشرعة المخالب تنقض على دوري صغير وتقبض عليه ، ورأت الدوري يخفق بجناحين كسيرين ويطلق وهو في أسر المخالب صوتاً مستغيثاً .
ـ مين ؟
ـ حنورة . .
ـ أهبل الكفر . ياوكستك يا مضاوي يا بنت النواصف .
وعادت تنظر من النافذة .
ينبوع يخر ، وساقية على مدار ، وأشجار عل النهر ، وصف من دواب يؤوب ، وغيمة من سحب راحلة .

تحدثت الخالة لروحها « الجو منذر بعفرة الخماسين ، وستهب ريح السموم ، وستمتلىء عروق الصبايا بالدم السخن » .
نشطت الريح فتمتمت « في الربيع تعم الخطايا ، وتزكم الأنوف الفضائح » .
استدارت ناحية البنت ، كانت قد نهضت وجلست على الكنبة الخشب ، رأسها في عبها تنفحم في شهقات . شوّحت الخالة تجاهها وقالت :
ـ كل لذة من عمل الشيطان . نسيت نفسك ونسيت أبوك الكريم ابن الكرام . انهضي .
نهضت « مضاوي » باكية . سألتها الخالة :
ـ واستى كانت عملتك ؟

ـ من شهر ونص .
ـ حد غيرك يعرف ؟
ـ « الجارية » بنت عمتي .
ـ كمان . حتى سرك ما قدرتي تستريه . يا سواد أيامك يا « مضاوي » .
صمتت الخالة قليلاً ثم قالت لها :
ـ ودخلتك امته يا بنت ؟
ـ الخميس الجاي يا خالة .
ـ استر يا رب النهار المبارك . اسحبي اخوك ، وغوري من وشي ، وربنا يستر على ولاياه .
خرجت من الدار ، وسارت على الجسر . أفعمت روحها رائحة الزهرات التي تفوح من تلك الحقول القريبة . . توقفت دموعها وشهقاتها ولاحت من قلبها الوجع . وعندما سألها « عبد المولى » : لم تبكي ؟ ، توجست منه وقالت له : أبدا . مفيش . فقال لها الصغير . حد زعلك ؟ فقالت له : أبدا .
قل روعها واكتسحتها الذكرى الآثمة .
كانت الشمس وسط السماء سخنة ، وكانت تسند صدرها على حافة النافذة وتنظر عبر كثافة الشجر التي تظلل أرض حديقة دارهم . رمت على ظهرها ضفيرتيها وشدت بدنها وسمعت صوت ماء يصطفق ويأتيها من ناحية البئر المحفورة وسط جنينة دارهم . نظرت هناك بعين سليمة ولها رموش من ليل :
ـ مين هناك ؟
سمعت كركرة ضحكة ، وصوت حموم وكلمات بلا معنى .
ـ مين اللي هناك ؟

ضحك الأهبل ضحكة وعرة ، وهفت طائرة من فـوق الفروع بومة أعماها النور .

ـ حنورة . واد يا حنورة .

نظرت من تحت الشجر فرأت الولد عارياً فانتفضت روحهـا ، وتسـرب اليها الحنـين مشبوبـاً ، فارتعشت ، وانتشت بمـرأى الجسـد الأعجم المتـين ، وللحـظة ودت أن تـطول يـدهـا وتتحسس ذراعيـه وصدره ، وتقبض بكفها على ما بين فخذيه . ارتعشت حين فاجأتهـا مشاعرها الحرام .

غادرت النافذة ، ووطأت ورق الشجر الجاف ، وسمعت غناءه مختلطاً بلا معنى . .

البنت الحلوة القمورة . . زي . . زي . . الـ . . صـ . . و . . رة .

أزاحت فرع البرتقالة وبرزت حتى حافة البئر . كان جسده يشر الماء منه ، فيما يبدو عضله ملفـوفاً ، وتكشف فيـه بقع الشمس زغبـاً كصوف الغنم ، وكسفاً من الشعر المجعد الملتف .

رماها بعينه البلهاء ، ونظرت شدقه المفتوح ، تطل منه أسنـان قوية لامعة . غطس في البير وغاب ثم اندفع خارجاً محدثاً جلبة :

ـ ميه . . حلـ . و . . ه .

وأطلق ضحكة الكبش .

ضحكت « مضاوي » لما رأت لعبه مع الماء ، وصاحت نشوانه :

ـ حيوان أعجم يا اخواتي .

تحسست ذراعه ، ومسحت بكفها صدره فجفل وأطلق ضحكاً ، ثم أشار ناحية الشجر المظلل وصاح :

ـ فرسة النبي . . آه . . فر . . سة . . النبي .

تكمن تحت الورق بأرجلها الرفيعة ، لها خضرة الشجر ، برأسها عينان تحدقان . تنتظر دابة من دواب المولى تسعى لرزقها لتنقض عليها انقضاض الموت .

قرصت ثديه فأزاح يدها وأطلق ضحكة الكبش ، سدت فمه المفتوح بكفها جافلة :

ـ سد خشمك يا أهبل .

ماء قط وقطة ولهان بالقرب من السور ، ثم اندفعت القطة صاعدة الى سطح الدار وفي ذيلها مرق الذكر مشرع الأذنين ، منتصب الذيل والشوارب .

ـ قل لي يا حنورة . . انت مش هتتجوز يا وله .

ضحك وأشار ناحية الشجرة :

ـ فرسة النبي . . فر . . سة . . النبي .

تيقظت شهوتها كلما تحرك جسد الفتى . ضغطت أسنانها ، محاولة أن توقف ضربات الدم في بدنها والذي اتخذ مساراً تحت جلدها . اسقطت بقصد منديل رأسها وظهر شعرها الفاحم ، وحدقت في عين الفتى فرأى شعاعاً وبرقاً .

أخذتْ بيده فخرج عارياً من البئر بطاعة الأطفال ، تنكشف عورته لقروش الشمس التي تستقر فوق الشجر ، من جسده ينساب الماء في خطوط متقاطعة . سحبته وخطيا العتبة .

دخلت به الدار وولجت معه الى حجرتها وردت الباب . عطرته بماء الورد ، ومشطت شعره . نظر نفسه في المرآة فصهل كجواد . سدت فمه بكفها وهمست بصوت مخنوق :

ـ اخرس يا أهبل . بلاش فضايح .

لامست جسده فطقت في الجسدين شرارة النار ، وأتت من

شـواشي الدمـاغ للقلب ، وانداحت في العـروق لاهبة . أخـذته في حضنها .

انحلت الضفيـرتان ، وانسبلتـا على الكتفـين كالسلب وقـالت « آه » .

مَـزَّعَ بيد الـوحش صدر فستـانها فتلألأ صـدرها قـرصـين من عجين . خطف الأهبل الثدي فجفلت وهمست له بضعف :

ـ بالراحة . . بالراحة يا أهبل .

زم فمـه وجـرت الـدمـاء في وجهـه ، وانـتصـب جسـد الفتى فيما يضرب قلبه ضلوعه كجرس ، ناضباً عنه قلة ادراكه ، توجهه غريزة الحيوان واللذة الفطرية الكاسحة .

خافت عندما أحست بخيط الدم ينسـرب على وركهـا ، لكنها كانت قد سقـطت في القرار حيث جـاء خوفهـا متأخـراً . كانت قـد أغمضت عينيها وشربت من نهر ماؤه عسل وصرخت ملتذة فيما كانت مهرة الدار تخب في الارض البراح مقطوعة المقود ، مندفعة بضغط لحمها الحي ودمها السخن .

عندما وصلت باب الدار تركت يد أخيها ، وطفرت من عينهـا دمعة وهمست :

ـ يا ندمي .

* * * *

نهار الحنة قبل الفرح بيوم . استوى ديك الله الذي تقرع رأسه السماء ، والتي تأتي أجنحته بالريح ، والذي علمه المولى سبحانه أوقات الصلاة التي اذا جاء ميقاتها سبح بحمده تعالى « تبارك القدوس » فتجيبه ديكة الأرض داعية .

تنهض « مضاوي » طاردة فزع أحلامها وتتنهد ناظرة لصاحب العرش :

ـ يا رب ياللي سترتني في الأول ، استرني في الآخر ، واللي تستره يا كريم ميفضحوش مخلوق .

جَسَّتْ وشوش الطواجن وحملت شالية حلبة البارح لزوم افطار الأب والأعمام . استندت لجدار الحضير يدها على رأسها ، وبقلبها وجل وبصدرها عش عنكبوت ، داخت البنت من الوقفة ، وأهل الدار لم يستيقظوا بعد . لم تنم ليلها وطاردتها النار في الحلم والفراش .

على السلم اختل توازنها فسقطت شالية اللبن منفجرة . فزع « عبد المولى » من أحسن منامه وخرج على الصوت المدوي . كانت اخته مستندة على الحائط تمسك بيدها دماغها ، واللبن المسكوب يختط على الارض خطوطاً . تأمل الطفل اللبن وصرخ بأعلى صوت :

ـ الحقي يا مضاوي . . دود في اللبن .

* * * *

تجثم شجرة نبق « المصاروه » على جسر ترعة « كسير » ، تمد أذرعها للماء وللجسر وعيال البلد . « حنورة » الأهبل رافع عصاه التوت يضرب الفروع فتسقط النبقات ، يملأ بها كفه ويصيح « النبق ، النبق » . تجمع حوله الأولاد وشكلوا حلقة صائحين « العبيط أهه . العبيط أهه » . ردد معهم « العبيط أهه . العبيط أهه » وضج بضحك بلا عقل . اندفع « رحيم » وشده من ثوبه فلسعه بالعصا فاستجار بالجدار يهرش مؤخرته . هش بقية الغلمان وبقي يحدق ناحية الشمس العالية .

رمى للشمس بثمراته وقال « كلي يا شمس » . انفرطت الحبات على الارض عقد من ثمر .

خلع العبيط ثوبه فتعرى جسده الفتي ولوح بالعصا وخبط الارض كثور هائج . صاحت نسوة على « المرادة » « استر نفسك يا جاهل » وانفجرن ضاحكات . صاحت احداهن « بطول ذراع يا اختي » طقت زغاريد فَشَوَّح بالعصا ورقص عارياً وصاح بعلو الصوت :

ـ فرح . . فرح « مضاوي » .

* * * *

ختم الأب الصلاة ، وسكن هنيهة يردد الدعوات ويطلب الستر من الفضائح ثم شد قامته وقام . سوّى طوق جلبابه وسحب مداسه وخطا ناحية الباب . دقت ساعة الجامع ثلاث دقات وانداح الرنين في صحن الجامع الواسع . هف وطواط يضرب بجناحين مفرودين الأركان ، وتجمع العميان أسفل المنبر يتلون الآيات .

خاف الأب العمى والعجز وقلة القيمة ، وتاه في حكمة الرب وأحكامه . نظر للسماء فرأى السحب تركض ، ففارقه يقينه ولم يستطع دفع حزنه . . همس « النبت لا يخضر في الحقل المحصود ، ولا يذهب الموت المهانة » . وصل الدار فواجه زحمة الفرح . قال لامرأته :

ـ غيّري شال العمة . الشال توسخ .

انتهى للدار القديمة قابله ابنه وسأله :

ـ خير يابه ؟

ـ خير .

جرت خلفه بنت ابنه وصاحت « جدي . . جدي » لكزها في صدرها بقسوة وواصل سيره حتى غرفة الخزين .

كانت معلقة على الحائط بطول ذراعين ، بنيّة ، داكنة ، مطموسة اللمعة ولها روحين وقلشين أصفر باهت يتدلى دبشكها الى أسفل ، معلقة على الحائط من سنين تشيع منها برودة الموت . هتف بابنه :

ـ نَزِّل البندقية ، نظف الماسورة ، وزيّت خزنة الطلقات ، عاوزها تضوي علشان تليق بفرح اختك « مضاوي » .

* * * *

يوم الفرح زعبب الجو بترابة برقة محملة بغبرة الخماسين ، ودارت بقش السكك « فسيّة » العفريت ، وبانت الشمس بيضاء في العيون .

دخلت بحراية قاعتها ودست يدها في كيس وأخرجت مسناً من حجر الصوان وسكبت عليه نقطة الزيت وأخذت تشحذ السكين « رائحة للموت ، ورائحة للدم الفائر . من يفتح الباب بخاطره على نار جهنم ، والبنت معذورة هزمها بدنها ودمها الفائر ، وانت « يا هانم » ستارة للعيب ، ومن يدك تولد الأفراح » . واجهت مرآة الدولاب وعقدت شعرها كعكة ، وتحسرت على جمالها الغارب « خبا العمر ، وخط الشيب الجدائل ، والشكل في المرآة المعتمة بهت » .

انحنت ماشطة البلد وسحبت شنطة كاكية وأخرجت أدواتها . . حق كريم بلون اللبن . . ملقاط حواجب من فضة . . بكرة من خيط رفيع . . ورق زواق بلون الورد لصبغ الخدود والشفاه .

صعدت سطح الدار ، بيدها السكين المشحوذ وحدقت في الصبارة ، وسباطة البلح التي تتدلى على جدار الطين ، ودجاجات شرهة عليها البيض تنق ، فيما يصيح ديك النتاج رافعاً عرفه القرمزي معلناً عن توحده وسط القطيع . بناني الحمام معلقة على الجدار يهدل بداخلها من كل زوج اثنان .

أفلت الشمس وغامت ، واكتست البلد بغبرة ، وتصاعدت رائحة الطين والتراب .

جلست البلانة القديمة تحت جريد النخلة وأخذتها سنة من النوم . . مشت حتى الخرائب ورأت قمراً معلقاً هناك ، والبنت ذات

أجدائل وطفاء العين عارية الجسد ، ينكشف نهداها فاكهة حرام . . جرت ناحية البنت التي كانت تصرخ . . (الحمام) . . (الحمام) . طوف الحمام فوق الخرائب ثم طار حتى غاب . . صاحت ماشطة البلد . « ارفعي اللعنة يا أم هاشم » . خطفت الريح البنت وصاحت الخالة . . « ارجعي يا بنت » . .

انتبهت على صوت الأذان ففاقت . . وسكنت الريح وصفا الجو . همست لنفسها . . « حلم اللهم اجعله خير » .

سارت ناحية بناني الحمام وقالت بصوت مسموع « من يهرب من مكتوبه ، والطريق مسدود ، وفخاخ المولى منصوبة لعباده » .

فتحت خزنة بالحائط وأخذت كوباً من الزجاج . أسرت حمامة وقبضت على جناحيها . خفقت الأجنحة وهدل الحمام . قلبتها على ظهرها فانتفض الطير بالخوف البدائي وانقلب بياض عينيه مستجيراً . جزت اليد القوية الرقبة الخضراء الضعيفة ، وخفقت المخالب متقوسة تدفع عنها فجاءة الموت الداهم . صفت الخالة دم الحمامة في الكوب الزجاج ولمحت « حنورة » على الجسر يركب عصاه في زفة العيال . . تمتمت في حسرة :

ـ كله منك يا أهبل . مقدر ومكتوب .

* * * *

دفع « سانبو » الجزار العجل اللباني من مؤخرته . قاوم العجل وحرن وامتنع عن السير ، فدفعه الجزار دفعة زحفت به . . عصب « عبد المولى » جبهة العجل بمنديل أخضر مشغولاً بالترتر والخرز الملون ، وأخرج من جيبه حبة الكارم الصفراء . مررها بالخيط وعلقها حول رقبة العجل وسحبه . . دار في الوسعاية سبع دورات تحوطه الزغاريد وطبول الفرح . . عاد حيث « سانبو » الذي أمسك بقوائم

العجـل وطرحـه على الارض ، وألقى بثقله عليـه . . فرفـر الحيـوان ونخر ، واتسعت عيناه وحدقتا في عيون الاطفال . . جـز الجزار عنق البهيم بعد أن قال « باسم الله . . الله اكبر » . رفس البهيـم الهواء وشخر من حنجرة مقطوعة . فزعت طيور الظهر وخافت العيال عندما اندفع من الحلق المجزوز تيار الدم ، مشكلاً على الارض بركة صغيرة ، حية وساخنة .

على العتبة أطلقت الأم زغرودة مجلجلة وصاحت بعلو الصوت :

ـ على شرف بنتي أذبح ، ليأكـل الغني والفقير ، ويشبـع أهالي السكك .

* * * *

العصر زفت المزيكة الشوار . عربات حاملة نحاس أصفر وأثاث ومراتب جديدة منجدة ، تسحبها خيول ضامرة ببطون هضيمة لا تكف عن ذب الذباب . . أسبتة مغطاة بفساتين العـروس الملونة ، تحـوي الخزين والشربات وأقماع السكر .

في الليل شعت حارة « السـاقية » بنـور الكلوبات المعلقـة فوق السـاحة ، ورفـرفت أعلام زينـة من كل لـون ، مشدودة بخيـوط . استقرت المزيكة في الساحة ، خلفها بقالة « الزوايدة » وأمـامها قهـوة « رشاد » ودار « ألفية » وشجرة النبق التي يمتطيها العيال للفرجة .

انطلقت المزامير ونافخات النحاس والطبلة الكبيرة دافعة بالنغم الى حواري الكفر ، مختلطة بزغاريد البكارة .

في بيت العم يجلس العريس في الطشت النحاسي ، حوله أترابه يشمرون أكمامهم المبتلة ، ويصبون على الجسد ماء الحموم الذي يدفع بصابون العرس المعطر . يجأرون في نفس واحد :

ـ الورد كان شوك . . من عرق النبي فتح .

ـ عريسنا والنبي . . والنبي . . والنبي . . فلة والنبي .

يخرج العريس عـارياً من طشت الحمـوم ، ساتـراً عورتـه بين فخذيه ، واضعاً عليها كفه بينها الكلمات المكشوفة تهوي على رأسه :

ـ شد حيلك يا عريس الليلة ليلتك ، وليلتـك لبن ياذن عـلام الغيوب .

أمامه في الزقاق دستة من الشمع تنير ، بلهب راقص ، وثلاث كلوبات تفح النور على الزفة .

أمه وخالاته ، وأحب أحبابهم ، قريبين وبعاد يطلقون الزغاريد ويرمون حصوات الملح التي تهمي كالمطر ، والليلة بدت للعين شبعة ، وآخر المدى مسكون بالفرح .

« مضـاوي » بنت الكرام في ثـوب زفافهـا الأبيض المشغـول ، يضرب قلبها جناح طائر ، وبين نفسها تتنهد « الستر يا رب » .

ردت عليها شربات بنت عمتها :

ـ ولا يهمك يا بنت . . اسأليني أنا . . أخذ الوش زي قـرصة البرغوث .

زاط « حنورة » رافعاً عصاه مشيراً للنور القادم بـالعريس عبـر الزقاق وصاح بخبل :

ـ الزفة . . الزفة .

وكانت الخالة « هانم » الماشطة قـد حضرت من العصـر حاملة حقيبتها وزينت البنت بالأحمر والأخضر ، وشدت صدرها بمشد جديد ملون بلون القطن الأبيض ، ودعكت جسمها بمـاء الورد ، وزججت حاجبيها بـالأسود الفـاحم ، وحمرت شفتيهـا وخديهـا بلون التفاح ، وسرحت لها شعرها كبنات البنادر . . قالت لها « مضاوي » :

ـ أحوالك يا خالة ، روحي في ايدك .

ـ خير يا بنت الكرام .

وأشاحت عنها بوجهها ، وخرجت من الحجرة الى الساحة التي أمام البيت وزعقت في البنات :

ـ زغردوا يا مقطوعين النفس .

دوت الزغاريد واستحكم الفرح بالدار ، وبدت الليلة كأنها لن تنقضي .

رجعت الخالة للبنت ونظرت في عينيها ، فاسبلت « مضاوي » جفنيها ، وقالت لها الخالة :

ـ عاوزه صريخك يجيب آخر البلد ، ودم الحمام سره باتع .

حضر العريس والزفة للساحة فهاجت السهرة وصاحوا فيه « مرحب عريس الغفلة » .

ابتسم الشاب الغشيم ، وحوطت أمه رقبته بلاسة حرير وقالت « دفي نفسك لتبرد » ، ورد عليها الولد « أحمد » الجمال « يبرد مين يا خالة أمينة . . حد يبرد وفي حضنه « مضاوي » بردك ؟ » .

خطا العريس حتى غرفة الجلوة ، فتعالت الزغاريد وتكاثف الزحام وارتفع الغناء ، صاخباً ومدوياً . كشف عن وجه القمر الخمار الشفاف ونظر في العين الوطفاء الكحيلة وقال في نفسه « قمر يا اخواتي » ثم قال « لمضاوي » : « مبارك يا مضاوي ، عليك وعليه » .

أسبلت البنت عينيها ، وضربته الخالة « هانم » في صدره وقالت له « ملحوق على ايه ؟ بكرة تشبع » .

شق الأب الجمع وصاح في الخالة « خلصونا يا خالة هانم . . الوقت تأخر ، والناس جاعت » .

سحبت الخالة شنطة القماش وأخرجت متاعها ووضعته تحت كرسي الجلوة ، وركنت بجوار الرجل كوب دم الحمام الذبيح .

أخلت الخالة الحجرة ، وأغلقت النافذة وتوقفت المزيكة عن الدق والنفخ .

أخذت الخالة ابهام العريس ولفت عليه منديله الأبيض ، ثم صاحت فيه بعدوانية مفاجئة :

ـ هتعرف تاخذ الوش ؟

اضطرب الفتى الغشيم وقال :

أعرف . . أعرف يا خالة .

ردت عليه القادرة :

ـ لا هتعرف ولا حاجة . . خاليني أساعدك . رجالة آخر زمن .

اضطرب العريس وأعطاها اصبعه الملفوفة ، وأشرعتها المرأة ، وجلسا تحت الفخذين التي تصر مضاوي على سترهما ، خجلة ، ومكسوفة . نظر العريس لأسفل فشخطت فيه المرأة :

ـ انت هتبص لي . . بص للعروس قمر أربعتاش . . هات صباعك .

ولج الابهام الأرض الحرام ، المحروثة ودخل براحته ، والشاب المضطرب غرقان في عرقه . . صرخت « مضاوي » الصرخة المدوية ، والمتفق عليها والتي عبرت ضفاف الليل . أسفل حجر العروس فكت الخالة المنديل وبقعته بدم الحمام الذبيح بقع في حجم البريزة الفضة . . تحاملت مضاوي وقالت : « آه » سندها العريس الى صدره وقال « خلاص » .

فتحت الخالة الباب وسلمت للزحمة دم العروس المبقع المنديل ، فضجت الوسعاية بالزغاريد والهتاف ، وعاودت المزيكة عزفها وطبلها .

انطلقت أعيرة النار تنفجر في الليل من مسدسات وبنادق ، واستحكم في الليل صوت الأعيرة المنبثقة في ومضات خاطفة فوق سطوح

الدور ، وقرب النجوم .

رفرف المنديل فوق هامات الأعمام ، والأخوال ، علامة شرف العوائل .

ـ يا بلحة ومقمعة . . شرفت اخوانك الأربعة .

جاءت الأم الحبيبة من المندرة المقابلة حـاملة على رأسهـا صنية الاتفاق . . انفتحت ضلفتي باب الغرفة حتى تسع الصينية النحاس . . ظهرت « مضاوي » مستندة بظهرها للسرير في مواجهة البـاب ، بينما ينشغل عريسها بخلع جلبابه الكشمير ، والخالة « هانم » تجمع متاعها بضمير مستريح ، يلوح على وجهها بشر الخواتيم الطيبة وقد تحـررت روحها ، وفارقتها هموم الأيام الماضية . فيما كان منديل الدم يرفرف على الرؤوس المبتهجة راية يطلق من اجلها الزغاريد .

« الفصل الاول »

نهض من رقدته فخلع ثوب المنام ولبس ثوب النهار ، وعندما كبس طاقيته في رأسه وهبط من فوق ظهر الفرن وسوّى ياقته تمتم « صبحنا وصبح الملك للمالك » . تململت « رحمة » زوجته وفتحت عينيها وقالت له ناعسة :

ـ الى اين يا صفطي ؟ ما بدري . وهمت نصف همة . قال :

ـ الفجر وجب .

ثم خطا ورد الباب .

في زقاق عزام الضيق كشق ثعبان ، غاصت قدمه في وحلة السكة . تنهد وقال : « يا دين محمد ، الدنيا كحل » .

سار يتلمس طريقه محاذراً الخوض في الحفر ، ويطون كلاب الفجر الغافية .

ولما سمع الشيخ « زنون العكل » من فوق مئذنة « أبو حسين » يؤذن « الصلاة خير من النوم » وسع خطاه .

بعد اداء الفرض عاد لحظيرة بهيمته ، وخلط علفة التبن برشة الفول ، وطبطب على زند البهيمة التي رفعت ذيلها في حنيّة ، وتحسس بيده ضرعها المنتفخ باللبن وقال «يفتح في وجهك الأبواب ، ويوّسع المولى رزقك بحق الصباح المبارك » .

تنفس النهار وشعت على البلد شمسه ، وبانت في الضوء الوليد أشجار الشطوط ، يحط عليها طير البداري الذي يضرب بمختلف اللسان ، ولاحت سحن الكلاب تهارش كلبة « عوض النجار » في الخرابة القريبة من الدار .

دفنت البهيمة خطمها في التبن ، وأخذ يسمع أنفاسها وهي تلوك فطورها بنفس مفتوحة ناظرة ناحيته بعين مبحلقة على الآخر .

كان قد قرر الطلوع بها للسوق هذا الثلاثاء . أخذ يدفع عن رأسه عراك ليلة البارح مع زوجته التي أطبقت على زمارة حلقه ، وصرخت في وجهه « بعمري طلوع البهيمة من الدار » .

كان فمه مراً ، ينظر في ظلمة الأركان ، ويشعر بثقل هواء الصباح الذي يدفع الى أنفه برائحة وحلة الزريبة ، وحرق طواجن اللبن ، وَعُرَمْ الخراء المبثوث ، والتي تشم وجه التل الرابض عند مؤخرة الدار .

تناهى اليه صوت خطوات تدرج مسرعة ، عرف فيها خطوات امرأته . تنهد وقال لنفسه « يا فتاح يا كريم ، يا رزاق يا عليم » .

كانت السحب تركض مبتعدة ، مفسحة لشعاع شمس الصباح الذي يهبط الان في حزم من لون ، وقطعان النهار متوجهة للحقول في

صفوف .

لمحها تأتي مهرولة ، تلقي بطرف طرحتها خلف ظهرها ، وجسدها المتين العامر يخبط الارض بخطوات جامدة تنم عن انفعالها . وعندما رأى وجهها في طلعة الصبح ، لمح على صفحته علامات بدء العراك الذي يعمل حسابه .

ـ خير يا صفطي ما الذي تنويه ؟ .

ـ طالع السوق . قلنا هذا الكلام البارح وانتهى الأمر .

ـ ثاني . الذي نبات فيه نصبح فيه . يا خراب بيتك يا رحمة . حرام عليك يا رجل .

ـ حُرْمِتْ عليك عيشتك . اصبحي يا امرأة ، واهمدي .

ـ البهيمة خير وبركة ، وورشة لبنها تملأ العين ، وتسر الخاطر ، فاتحة البيت ، وطاعمة العيال ، هَتُحْرك فيها يا ابن فهيمة ، وتزن على خراب عشك .

ـ يا امرأة الجاموسة شاخت وعجّزت وقرنها لافف مثل الحواية على رأسها ، ومن يوم ما فطس ابنها وأنا متشائم . قلت أبيعها وأشتري بهيمة وراءها عجل ، أو على القليلة عُشْر .

ـ قلت بعمري طلوع البهيمة من الدار .

واطبقت على حلقه .

ضرب الدم رأسه وعاجلها بضربة على وجهها ففرفرت صارخة وقد اجتاحها دوار .

تساندت على جدار الزريبة ثم زحفت بظهرها حتى الارض وهي تولول . خرج الحاج « محمد العريني » من داره على صوت العراك :

ـ وحدوا الله يا جماعة .

ـ تعال يا عم الحاج ، واشهد أعمال « الصفطي » .

ـ الصفطي يقصد الخير يا رحمة ، وهذا الموضوع شبعنا فيه كلام ، وزوجك رجل عاقل ، ويعرف الصالح .

إنثالت الكلمات من فم « الصفطي » غاضبة ، ولعن الصباح ، والوجوه العكرة ، وَوَقْفَ الحال ، وتمنى على الله أن يذهب ولا يعود ، حتى يستريح منه أولاد الكلب هؤلاء ، ويستريح هو منهم .

فك عقدة شحاط البهيمة ومرره من الحلقة الحديد المدقوقة في الطوالة وسحبها الى الخارج واستلم الطريق .

نهضت « رحمة » تتابعه وهو يبتعد ، ومن خلال شهقاتها نادت عليه :

ـ أخذت فطورك ، ولا طالع على ريق النوم .

توقف لحظة ثم صاح فيها :

ـ انسدت نفسي ، الله يسد نفسك .

سار يطحن أضراسه . اندفع خلفه ولده الصغير وهو ما يزال في أسر النعاس ، يرفع ثوبه الذي ظهر تحته ذكره في حجم زر الخيار .

ـ خذني معك للسوق .

توقف مرة اخرى فوقفت البهيمة ، ومدت خطمها تلحس يده .

زعق في الولد :

ـ ارجع يا ابن الحرام ، أحسن والله آخذ عمرك ، هو أنا ناقصك .

رجع الولد ينفحم ، وسار « الصفطي » تسبقه الشمس الطالعة ، مثقل القلب ، تنوء منه روحه بهم ثقيل حيث السوق ، يوم المؤملين في الوهم .

« الفصل الثاني »

السوق أرض خِرْبْ محاطة بسور قديم من حجر بناه الانجليز . بجوار بوابته مبنى من حجر أيضاً ، بسلالم ثلاثة وحجرتان وصالة ، مدهون بلون أزرق ، لزوم ضابط النقطة . من الداخل وبجانب السور يمتطي عسكريان من السواري جواديهما ، يضربان الأرض بحوافر مدقوق بها حداوي من حديد يضوي كلما رفع الجواد قدمه .

ما ان دخل « الصفطي » من الباب العمومي يسحب بهيمته حتى رأى بائعي الحبال والمقاطف والسلاسل الحديد والفؤوس والشقارف جالسين تحت مظلات الخيش . كادت تدهمه النصف نقل « المازدا » المحملة بالمواشي خارجة من السوق فلاذ بسور الحجر .

انحرف يميناً فرأى في مواجهته بائع الخيزران ، ولما سأله « بكم ؟ » رد عليه : الخيزرانة بجنيهين ، ومن غير فصال » .

كبست عليه الكارو محملة بعرش البطاطا تطحن بصريرها الطريق ، تقودها امرأة سوداء تعصب رأسها بمنديل اسود ، يندفس طفل صغير بقلب الخضرة ، وينادي على العرش بصوت رفيع .

تجلت ساحة السوق واسعة ، مأسورة بالشمس والغبار ، والأصوات الضاجة بفعل مساومة الخلق ، والرغبة الحميمة في الأخذ والعطاء .

عجول عمر ستة شهور خضراء ، ومفطومة لزوم التربية ، وعجول سوداء بقرون مشرعة ، مربوطة في حبل واحد ، زهقانة ومنفعلة تدور حول نفسها تنخر من ضغط لحم العلف وأسر شدة الأذن . امرأة تصب لعناتها على بقرتها الحرون ، العنود ، وجواميس امهات ، وجواميس عِشَر تحدق بعيون واسعة حكيمة ، مجترة وصابرة على حر النهار وغبرة السوق . حلقات من الرجال جالسة تقترب في همس

المساومة وفتح الأبواب ، تعلو الرؤوس طواقي الصوف والعمائم ، تخط الأيادي خطوط على الأرض كالمصائر . ترتفع الأصوات « صل على شفيعك طه الغالي ، لا تكسفني . أنا أخذت العشرة جنيه عرقها . رح يا شيخ الله يكفيك شرها » . ينهض التاجر وبيده رزمة الفلوس خضرة ، ملوحاً بها في الشمس صارخاً « مليم واحد لن أزيد ، ولو خرج أبي من قبره . هي لعبة » .

« الصفطي » يقف في نهر السوق ممسكاً بمقود بهيمته حين سمع الصوت يأتيه من خلف :

ـ اسم الكريم ؟

استدار . رآه طويلاً كعود الخيزران ، تتوسط وجهه عيني صقر ، وعلى شفته بسمة ساخرة . همس لنفسه محاذراً « احترس . حلبي . من النّور » .

ـ الصفطي . اسمي الصفطي .

ـ بائع يا صفطي ؟

ـ نعم ، وعشمنا في المولى خيراً .

ـ بكم ؟

ـ افتح الباب .

دار ابن الحلبي حول البهيمة وهو يرفع ذيلها ، ثم سحبها فسارت خلفه طائعة ، طبطب على لحمها بيد الخبير ، وقبض على ضرعها فجفلت البهيمة وقلبت عينيها ، وهاشت برأسها ناطحة الهواء .

ـ عُشْر ؟

ـ خالية .

التمّ نفر حول البيعة وشكلوا دائرة .

ـ يا خسارة . وعهد الله ما أشتري الجاموس الخالي . تبيعها

جزارة ؟

ـ الجاموسة ، جاموسة أنيّة ، واتكل على الله وشوف حالك وخلينا نشوف حالنا .

ـ لا تزعل يا سيدي ، والكلام أخذ وعطاء ، وبين البائع والشاري يفتح الله . بعت بالصلاة على النبي بثمانمائة ؟

ـ يا عم قل يا فتّاح يا كريم . الا تعرف ميّة السوق ؟. السوق موهوج . أسعاره نار ، وأنت تقول ثمانمائة ، والله ولا نصف ثمنها .

ـ الف . قل الله يربحك .

ـ الله يربحك . وبيني وبينك يفتح الله باب .

يتقدم آخر تحمل ملامحه جدية ، ورغبة في الشراء ، أصفر وبعلّة في بطنه الوارمة كنفيخة ، وساقطة منه حتى وركه ، يطّبطب على زند البهيمة ، ويفتح خطمها فاحصاً أسنانها معايناً ضرعها بيده الخشنة . .

ـ ألف وثلاثمائة . بعت ؟

ـ يفتح الله .

ـ وخمسين .

ـ يعني جئت في جمل ، أنا قلت والله ولا نصف ثمنها .

ـ مطها بقى مطها وطوِّل فيها ، الظاهر والله أعلم انك لا بائع ولا شاري .

يستحكم الوقت وتقبض شمس الضحى الحار على الأعنة ، تصهل وينفرط التراب ذرات ، ويشكل على الساحة ستارة من غبار . تعلو المساومة الملحاح ، وشد أطواق الهدوم ، والحلف بالآباء والجدود فتنهزم المساحات وتضيق ، وتتسع تلك التي تفصل بين الكذب والصدق ويضيق صدر « الصفطي » فيصرخ في المشترين :

ـ يا ناس حلالي وأنا حر فيه . فانى الأرواح عليها نوّاح .

ـ طيب . خلّيه في قنانيه ، لما يجيء الخائب يشتريه .

وتجلجل ضحكة الحلبي .

كل المرارة في حلقة ، والبهيمة ريحها ثقيل ، والذباب ملحاح يطن ويمتص دم الخلائق ، وضاعت حسبته في أن يبيع المكلوبة ويكمل على ثمنها ويشتري جاموسة وراءها عجل . لكن المدعوقة حظها هباب ، وشيء ما ينخسه في قلبه ، وهم ثقيل ينوء به ، تفادى شعوره بالخيبة ومنع نفسه أن يقول « ليتني سمعت كلام رحمة » .

قصد حديد السور وتحت ظل الكافورة والجازورينا ربط البهيمة . جلس على كرسي المقهى يهش الذباب وغبرة النهار الكابس . كانت تجلس بالقرب منه امرأة سمراء ممصوصة كعود التيل ، خلف اناء من نحاس به فول نابت ، يتصاعد منه البخار ، ويئز تحته باجور جاز :

ـ تأخذ لك طبق ؟

ـ آخذ .

ـ تلاقيك يا نضري على ريق النوم .

ـ آه والله . شعفة على الفاضي .

ما ان انتهى من صحن النابت وكوب الشاي حتى أتاه من الزحمة ، غير واضح أول الأمر . رفيع وممطوط ، وحروفه عوجة وبلهجة غريبة :

ـ يا صفطي .

استجاب وقام حتى المظلة المقامة في الجانب الآخر . يقف هناك الحلبي مع اثنين من جماعته ، يحملان نفس الملامح . الجلابيب السابغة ، والتلافيع حول الرأس ، والوجوه الهضيمة النحيلة ، والتي تكسوها صفرة يشوبها بياض غريب عن سحن أهل القرى . نفس عيون الصقور الضيقة الحادة ، والتي تلتمع فجأة بذلك البريق الخاطف ،

والبسمة الخبيثة على شفاه الثلاثة ترتسم مستقبلة القادم . قال لنفسه « الحلبي وجماعته » :

ـ تنادون عليّ ؟

ـ طبعاً يا رجل . أهلاً بك يا صفطي . قُصْرْ الكلام . بهيمتك داخلة مزاج « حمدان » والرجل شاري . واحنا بينكما نقرب المسافات . ومائة هنا ، ومائة هناك لا تفرق . والبيعة في بيتها . . ورغبتك في شراء بهيمة وراءها عجل . وطلبك موجود ، يا دافع على حلالك ، يا قابض على حلالنا .

امتد الأخذ والعطاء ، وطالت المساومة حتى ضاقوا ببعضهم ، وشخط الحلبي فيه « انت رجل لا يبيع ولا يشتري ، ويومك كده باذن الله طويل ، والمعاملة معك تقصر العمر » .

فارقهم بلا سلام وعندما وصل عند بهيمته المربوطة في السور ، ونظر تحت الكافورة والجزورينا لم تكن هناك وكأن الأرض شُقّت وبلعتها . صرخ بعزم عزمه « البهيمة . . البهيمة يا ناس . . البهيمة كانت مربوطة هنا » .

انتبه وعاد حيث الحلبي فلم يجد احداً . دار في السوق كالمهبول ، وأمسك بتلابيب الخلق ، ونظر في الوجوه التي تجمعت حوله « شقائي وشقاء عيالي » .

صعد للنقطة وعمل بلاغاً بما جرى ، وعندما نزل استند للسور وغشيت عينيه ظلمة أول العاصفة . فارقه أمانه ، وحوطه الناس وكان يرتعد من الغضب تصطك أسنانه فيما يمتلىء صدره بصرخة مكتومة :

ـ ضحك على الحلبي .

تحاشى أن تطفر الدموع من عينيه ، والرجال شهود عليه . تمنى أن يكون الان على ظهر الفرن بين عياله ، بين أهل بلده البعيدين عنه .

شعر بحاجته اليهم ، وتمنى أن يراهم يعبرون السكك ، وكثبان الغيوم ، يحملون في أيديهم اسلحة من حديد ، يطلبون حقه الضائع ، والناس من حوله مهتاجة وقد هزتها السرقة المفاجئة ، يقبضون على مقاود مواشيهم بحرص مبالغ فيه .

راح النهار ولم يروّح « الصفطي » حتى اذا ما تأكد أن البهيمة ضاعت وانتهى الأمر طوى جناحيه وخرج من البوابة مكسور الجناح .

« الفصل الثالث »

ـ يعوض عليك صاحب العوض . مقدر ومكتوب . وانت ولا يهمك يا خويا والجاموسة في ضفرك . وما دمت بصحتك ، خيرها في غيرها . والأمر لصاحب الأمر .

وهيمنت على « رحمة » رغبة جارفة في البكاء ، قاومت دموعها ورفعت من على الدرج الطشطية النحاس ، ومشت ناحية الطلمبة المدقوقة في الفناء بالقرب من التينة وحوض الخص . أخذت تدفع يد الطلمبة في عصبية ، والماء يندفع في شهقات متتالية مختلطة بصوت أنين رفيع يعلو من اليد الحديد التي تضرب جنب الطلمبة برتابة واتزان . كانت تنظر ناحية زوجها الجالس على العتبة واضعاً ذقنه على كفه .

ـ لن نموت من الجوع ، وأكّمْ . . بلاوي ويزيح سيدك . وحسك بالدنيا .

حملت الماء واتجهت للزريبة تسقي الحمار والنعجتين ، بعد قليل خرجت وعلى رأسها الطشطية مليئة بالوحلة .

ـ خفف عن نفسك يا صفطي ، يروح الرجل في زعله يا ضنايا .

صعدت تل السباخ ورمت فوقه الوحلة ، ونظرت عبر الحقول ، سرحت فيما مضى وتذكرت أيامها الطيبة . قوقأت الدجاجات وانفرطت تنبش الأرض بحيوية أول النهار . غادرت « رحمة » الكوم ودخلت الزريبة .

لمح « الصفطي » عظاءة ملتصقة بالجدار ، تنظر ناحيته بعين منحرفة ولا تطرف ، تحرك ذيلها في بلادة . سحب بلغته ورمى بها العظاءة التي هوت على الأرض فوطأها بقدمه وحملها ثم ألقى بها بعيداً .

تَرَّبَتْ أرض الزريبة بالتراب ، واستمرت تتأمل مكان البهيمة الخالي ، ولما لم تستطع أن تقاوم رغبتها في البكاء ، تركت لدموعها العنان .

« الفصل الرابع »

حضرت الركائب باختيارها ، على ظهورها « مصطفى العريني » و « العبد بدر » و « محمد الجمال » . نادوا على « الصفطي » « هِمْ يا أبو سلامة ، الشمس فرشت البلد » .

تحرك الركب ناحية السوق .

هناك تفرقوا ، ونبه عليهم « العبد بدر » بعدم الاهمال ، والتقصي عن الحاجة بفطنة وعدم لهوجة ، واحذروا الاحتكاك بالحلب . أولاد كلب يحملون المطاوي المسنونة ، وأياديهم تسبق ألسنتهم .

لما تعبوا صعدوا للنقطة . وجدوا الضابط يجلس خلف مكتب قديم ، على زجاجه ترابة ناعمة ، وعلى الجدار صورة ملونة للسيد الرئيس . يجلس الضابط ماداً رجليه على زجاج المكتب وذراعه اليمنى ملقاة برخاوة على مسند الكرسي . قابلهم بعين شبه نائمة ، سهرانة :

ـ خيراً .

وعندما تأمل وجه « الصفطي » استدرك :

ـ آه . . انت صاحب الجاموسة . السوق الماضي . . أليس كذلك ؟ . على كل حال عملنا المستحيل . جاموستك كأنها فص ملح وذاب . فوت الثلاثاء القادم فربما يَجِدَ في الأمور ، أمور .

عاد لاسترخائه ، ينظر من النافذة . انفعل « الصفطي » وسخن دمه عندما رأى الضابط وكأن غفوة ستأخذه .

ـ لكن يا حضرة الضابط السوق مسؤولية الحكومة ، وحماية الأرواح في أياديكم ، وكان عشمي تعرفوا حاجة .

تأمله الضابط بعينه المسترخية وأشار ناحيته :

ـ يعني نوّقف على كل بهيمة في السوق عسكري ؟

ضغط « الصفطي » أضراسه لحظة أن فهم اشارة السيد ، ورد في انفعال :

ـ النقطة عارفة كل لصوص البهائم في الدائرة كلها ، وتعرف بالذات الحلب انهم . . ولم يكمل « الصفطي » حيث انتفض الضابط ، ساحباً رجله من على المكتب ، مسدداً ناحيته نظرة كارهة ، تلتمع تحت حاجبيه الكثيفين وشخط فيه :

ـ يعني يا ابن أمك تقعد تخشش على القهوة ، ويضحك على ذقنك الحلبي ، وفي الآخر تجيء تطالبنا بالعوض .

ـ أنا لا أطلب منك العوض . أنا عاوز بهيمتي .

ـ أحضرنا الحلب ، وحققنا معهم . أنكروا . ضغطنا عليهم بكل الطرق . مالذي نعمله لك ؟

صمت الضابط لحظة ، بعدها نظر ناحية « الصفطي » وقد ساحت على وجهه ابتسامة قلبت سحنته الرجراجة :

ـ الخوف الان ان تكون جاموستك ذبيحة في كروش الخلائق .

انتفض صاحب المال بلدغة الأفعى ، وطار برج من دماغه ، وبحث عن ريقه الذي جف ، وشعر بداخله كأن جراءات صغيرة تنغرز مخالبها بقلبه . صاح في الضابط بلا وعي :

ـ على شرف الحكومة لحم بهيمتي ، ما دام حاميها حراميها .

وضع « العبد بدر » يده على فم « الصفطي » وشخط فيه :

ـ اسكت يا غشيم .

نهض الجالس على الكرسي ، وقد فغر فاه ، وارتسم على وجهه خطوط غضبانة ، جعلته كوجه الغول :

ـ يا ابن الزواني .

وهوت اليد السمينة ، المدربة على الوجه . انساب خط الدم من

الشفة المرتعشة ، وطار برج آخر من الرأس الذي يدور . اندفع « الصفطي » فارداً كفه كالمخلب يبتغي العين المحدقة . « والله لأفخت نواضرك » .

تعلق « محمد الجمال » و « العبد بدر » بجسد « الصفطي » :

ـ اهمد يا جاهل . انت عاوز ترمي نفسك في داهية .

« الصفطي » طائر العقل يسحب الجسدين ناحية المكتب ، وقد اختلط زبد فمه بدمه النزاف :

ـ والله لآخذ عمره .

صاح الضابط وقد احتمى بمكتبه ، واضعاً يده على مسدسه « يا شاويش عمران . يا عسكري محمد » .

جاءت ضربة الدبشك الأولى خلف رأسه فانفجرت شعلة من اللهب أضاءت أمام عينيه وخبت ، وسمع من البعيد ، من أعمق أعماق ذاكرته صوتاً كالعويل « يا صفطي » ، يأتيه مشوشاً ، مختلطاً ، كاصطكاك عجلات على قضبان . وجاءت الضربة الثانية ، وتبعتها الثالثة ، فأمسك بضلوعه ، وأحس بطعم الدم في فمه حاراً ومريراً .

كان يترنح عندما سمع الصحاب تستجير « خلاص يا بيه . . خلاص » . كان ضعيفاً ، ومنطفئاً يطوح يديه أمامه كالعميان ، وكأنه يدفع خطراً محدقاً ، بلا حول ، يخوض في ظلمات ، والضرب المسلح يهوي بارادة الأقوياء .

تدحرج على أرض الحجرة ، ولم يعد يميز في خيط النور الذي يطل من خلاله على الدنيا ، ان كان هو الذي يصيح مسترحماً ، أم هم رفقاؤه الذين يصيحون :

ـ خلاص يا بيه . . خلاص .

« الفصل الخامس »

قهروه يا نضري ، وكسروا شوكته .

ضاع حلاله منه ، وضاعت كرامته .

جالس أمام الدار يتبع الظلة ، من عند البـاب ، حتى شاطىء المشـروع ، لا يلقي السلام ولا يـرد التحية ، كـأن جـوّاه حـاجـة ، وانكسرت . شاعر كأن عيون الناس أسياخ محميّة ، ومغروزة في قلبه . غُلُبْتُ من الكلام معه . دخلت عليه القاعة من اسبوع ، كان يرسم اشارات في الهواء ولما أحس بي توقف عن الكلام مع نفســه ، وكانت عيونه مفتحة على الآخر . صرخ في وجهي كالمجانين « غوري » وخرج من الدار .

بكت التي لم تكن تعرف البكاء ، وألقت برأسها الجميل في صدر امها ، ولما طوقت الأم رأس البنت أحست بدفء تفتقده . قالت الأم :

ـ كفاكي يا رحمة . ما أقسى الليل وما أطوله .

« الفصل السادس »

وكان دائماً ما ينتهي الى السوق ، داخلاً من البوابة العمومية ، يحادث نفسه طول الطريق « أولاد الزواني » . وكانت الغيطان حوله تمتد فياضة وعطوفة . « من سوق لسوق يا قلبي لا تحزن » يعكس وجهه الصارم ألمه . « الذي لا تستطيع علاجه يا صفطي تحمله » . كان يحاذر أن يرى وجه الضابط ، أو السواري . يبحث في شبورة الصباح عند السور ، بين الكافورة والجزورينا ، لعله وبمعجزة فذة من أولياء الله الطيبين يجد الجاموسة مربوطة تجتر فطورها ، نافخة من منخريها بخار أمعائها السخنة ، تقف وادعة ، حالمة ، منتظرة اياه ترد له كبرياءه ، وتدفع عنه مخاوفه .

سمع وقد عبر القنطرة الخشب « يا صفطي » . استدار فلم يجد أحداً . جاء هذه المرة من بعيد « يا صفطي » تأمل الفضاء . . كان الصوت يأتيه من داخل بدنه ، من رأسه . يعرفه . له امتداد . يبدأ من عند بداية خيبات رجائه ، وينتهي مع نهاية هذا الفضاء المفتوح . تحامل وخطا على الطريق « يا صفطي . . الحق البهيمة يا صفطي » .

يأتيه الصوت من جوف المغارة المسكونة . من آخر مكان تحلق فوقه الغيوم « الحق البهيمة يا صفط . . ط . . طي » .

صدى يتعلق بين النور والظلام ، والدم والماء . يأخذ بأحلامه وأمنياته الصغيرة . لا يعرف ان كان سيأخذ بيده ، صاعداً به حيث سوء بخته ، أم سيهوي به حيث القاع الغويط .

وجاء الصوت في الصحو والمنام ، ماكراً ، مخابثاً ، كصوت النداهة التي تدور بهم في الغيطان حتى آخر حدود العمار .

لأول مرة منذ وُجِد يرى نفسه يتجه الى البوظة فيعب حتى يدوخ ، يسكت الصوت الملح ويبحث عن دواء لروحه المعذبة .

« الفصل السابع »

حل المساء وبلغ الليل منتصفه . من نافذة القاعة طغى السحاب على وجه القمر « ليلة حارة لتوت » . رفعت شريط المصباح فبدد النور الظلام الكابس وبان في الأركان « بُـريه » من خشب قـديم ، ومشنة العيش ، وصنية القلل لامعة ومنداه عليها غطيان كالطراطير ، وصورة للكعبة والمسجد الحرام .

خرجت من القاعة ووايت الباب .

طمست سحابة توت القمر ، وسكن صوت السهرانين في الحارة ما عدا نباح الكلاب المتواصل في الانحاء .

أغمض عينيه ووضع يده على جبهته وتنهد .

دخلت « رحمة » من الباب وتنحنحت ، ووضعت تحت صنبور الحنفية الابريق الفخـار الأسود المشطوف فانسـاب الماء اللين داخـل الأبريق ، وجعلت تخلع سروالها الشيت .

خـرجت ثـانيـة الى وسط الـدار ، وتـذكـرت أيـام كـانت تروّض « الصفطي » فيتبعها ويركبها حتى ولو كانت في غرفة الخزين .

همست لنفسها متنهدة « أيام » . توقفت يدها فجأة وبدت ملامحها في نور مصباح الوسط ، قابضة ومنفعلة ، وانتابتها رعشة من كبرياء ، ممزوجة بذلك الشوق لعرق الذكر ولهاث أنفاسه .

عادت حيث حنفية الماء المركونة « ببحراية » القـاعة ، فغسلت وجهها ، ومسحت على صدرها بالصابونة المعـطرة ، وانتشت ناهـدة الصدر ، مدورة الردفين ، وتحسست بيدها ما بين فخذيها فتسرب الى عروقها نسغ من حنين قديم ، وصب في قلبها الواجف .

ـ صفطي ، نمت ؟

الرجل الهامد يتمدد جسده الأخرس ، يتجرد من رغبته حتى في سماع صوت زوجته .

في النـور خلعت هدومهـا فتجلت وارثة الحسن عن جـدودهـا البيض ، لهطة من القشدة ، يتفرع جسدها ويعوم فوق سطح الفرن ، وكلّما اهتزت اختلج ثدياها المرهفان ، يضربان نعومة الجلد ، فيما ينسدل شعرها الفاحم حزم من ليل على ظهرها السرح .

دخلت في قميص حرير أحمر ، مشغولاً بالترتر الأبيض ، والخرز الأزرق الذي لمع في نور المصباح لمعة خاطفة . حدد القميص جسد بنت الناس ، التي رشت عليه الماء المعطر فتضوع المكان برائحة الورد .

اندست بجانب الـذي هو زوجهـا فأعـطاها ظهـره . لم تيأس وامتدت يدها تهرش بدن ابن آدم وتهبط بها الى ما بين فخذيه .

ـ مالك ؟

لم ينبس الرجل الملقى به في الحفرة الا بآهة ضيق .

زحفت كفها واصطدمت بشيء كالقطن المبلول . ضمته لصدرها وكأنها تستجير به ، وتدفع مخاوفها .

قـربت شفتها من الـرأس المائـل في انكسـار ، وقبلت خـده ، ومسحت بيدها على شعره الخشن وهمست في اذنه :

ـ وآخرتها ؟ .

ضائع وقليل الجهد الذي كان يقودها في المتـاهة ، في الشمس الحرة ، يتفصد منه العرق ويحميّه ، يصهل حين ذاك كفرس .

هل تستجير بالأولياء ؟ يردون عليه عافيته ، ويعيدون لها أيامها التي ما برحت تستطعم لذتها وتشم رائحتها .

فتشت عن روحـه ، كـأنـه في القـرار ، جسـده مهـدود ،

لا يستجيب . في العـراء . شعرت بـه يرفـع رأسـه ويتصنت . كـان الصوت يأتي عبر شرايينه ويسحبه منها الى هناك ، عنـد التخوم حيث تصعد من الارض شبورة في لون الدخان .

آخر ملاذ له ، صدر التي هي أم عياله ، فدفس رأسه فيه .

« الفصل الثامن »

ستة شهور والصوت يحمله الريح .

ومن البلد للسوق ، ومن السوق للبوظة .

وهناك يتبدى الناس رافعين أذرعهم مساومين ، تخفق أرديتهم الخشنة بريح السموم فيما تبدو شواربهم الطويلة تقف عليها الصقور « كلهم لصوص » ووضع يده على أذنيه يسد الطنين الذي يجيء عابراً السحب الى رأسه التي لفرط ما بها من ضجيج كطاحونة غلة « يا صفطي .. الحق البهيمة يا صفطي » .

عش زنابير ، طانة ، ضاجة .

يحث الخطى الى البوظة باحثاً عن دوائه .

« الفصل التاسع »

على المدار نخلة ، وشجرة توت ، وصفصافة ، وكوم تراب ، وكلب نابح يخايله الذباب .

يجلس « الصفطي » كذئب جريح يحتضن ساقيه ويمعن النظر مزرراً عينه في الطريق القادم من الكفر يحمل الراكبين والراجلين .

هب الهواء وطاب ، ومد ملك الملوك كفه الرحيمة ومسح على صدره فانتشى لحظة ، وزهرت بقلبه براعم منورة . قال « الرضى بالقضاء ايمان ، ولكل بلاء نهاية ، واعتداء القوي لا يعني الفوز ، والدعاء للصابرين مجاب ، والاعتراض على ما قسم حرام . افهم حتى تهون بلواك » .

وقف على الكوم وفرد صدره للريح ، ثم جلس . استند بظهره وبدا لطول ما عانى كساق شجرة جففتها الشمس والريح .

غامت عيناه ، وسقط رأسه على صدره .

آخر السكك زحمة . مزار ، ولمة خلق ، أفواه مفتوحة كأفواه ضفادع تنق ، وتنهش اللحم . قلب مفتوح نازف يهوى الى سفح خراب . للرب أحوال ، ولابن آدم أحوال ، والعري في القضاء دين معلق في عنق الآدمي للمات . . « يا صف . . ط . . طي » . على الجسر مدفون رجل حتى رقبته ، وسيدي « الخضر » راكب أتانه ، لابس جبة من جوخ أخضر ، يعتمر عمامة هائلة خضراء . « من الذي دفن الآدمي في التراب ؟ » . رد المهال على جسده تراب الأيام ، وكلّمَهُ عن الحظوظ ، وطلب دعوة تفك الضيق ، وترفع عن البدن لعنته . ابتسم « الخضر » ولكز الأتان في جنبها ، وعبس وأعطاه ظهره . نبت للآتان جناحان ، وحلقت في السماء البعيدة مثل براق المصطفى ، وضاعت في السماء البعيدة : « يا صفط . . ط . . طي . . الحق البهيمة » .

أفاق على ضحك العابرين .
ـ مالك بتصرخ كأن أبو الخناق خانقك ؟
ضغط على قلبه ، وتنفس بعمق حتى لا يختنق .
« يضحكون علي ، ويسخرون مني أولاد القحبة » .
نهض واقفاً ، مأسوراً بغضبه وصاح فيهم :
ـ على ماذا تضحكون ؟
ردوا تجلجل ضحكاتهم :
ـ تصرخ في المنام ، وتولول كحرمة « البهيمة . . البهيمة . . وصوتك جايب لآخر البلد » .

هبط الكوم وخطف وتدأ بطول ذراع . خاض الترعة الذي وصل ماؤها حتى وسطه . صعد البر الثاني وهوى بالوتد على رأس « فواز » صاحبه :
ـ أفلق رأسك ، وأتاويك مكانك ، ولا يظهر لك رمة . أولول مثل الحريم يا ابن الدنيئة .
ـ ما الذي جرى يا صفطي ؟ « فواز » يضحك معك .
هجم عليه بغضبه ، فحجزوا بينهما .
تتلبسه رغبة في العراك ، يدفع عن كبريائه الصقور . أحاطوا به مندهشين من تصرفه ، ظانين ولسوء بخته ، أن آخر أبراج دماغه قد طار منه الحمام .

« الفصل العاشر »

وسألني الرجل الذي هو أعور العين ، والذي يوقد النار في منقد من نحـاس ويجلس على كنبـة عـاليـة ، خلف ظهـره رف من الكتب الصفراء ، وأمامه منضدة فوقها كتاب مفتوح :

ـ خيراً يا بنت الناس .

وضعتُ على المنضدة قمع السكر ، وتأملت وجه الرجل .

ذقن من كتـان ، وطاقيـة من صـوف الغنم ، ووجـه هضيم ، شاحب كوجوه الموتى من طول ما عاشر باسم الله أهل تحت الارض .

ـ الصفطي يا مولانا .

ـ ماله ؟

ـ تناديه أصوات ، وتقلق راحته . سَتْرِي وَسِتْر عيالي في الزمن الصعب .

ـ ومن منا لا يسمع أصوات تناديه ، حتى الموتى نسمع أصواتهم .

ـ أخاف عليه من الخبل ، وفقدان العقل .

ـ لا خوف ، ولا يجزنون . والصوت ونس في الصحو والمنام ، رسالة من بعيد .

أخرجتُ من جيبي الجنيه ، ووضعته بجانب قمع السكر . رمش بعينيه السليمة ، وتلك المطموسة بدمل العجز ، والعتمة :

ـ لولا الكرب ما صفيت النفوس .

رمى على النار البخور فتصاعد دخانه . وعبقت الحجرة ، ومضى يقرأ التعاويذ والرقى والخواتيم . أمسك بقلمه البسط وأخذ يكتب على ورقة حروفاً مفكوكة ، ومهوشة .

ـ يصوم الصفطي عن الزاد أربعين يوماً ، تبدأ من يوم الأربعاء ، يوم رست سفينة نوح على الارض بعد الطوفان . يمحي بلسانه الكتابة ،

ويستحم بمائها . بعدها تعم الدار الراحة ، ويروق دماغ الصفطي ببركة صاحب العمامة السوداء ، والبغلة الدهماء ، الذي له ألف رأس ، وفي كل رأس ألف فم يسبح الله بلغات لا تشبه بعضها بعضاً .

حجب البخور الشيخ عن عيني ، وخفت . مددت يدي وأخذت الرقية ، وتاه مني فكري فيما قال ، وأدركتُ ان الدنيا خارج النافذة قد بدأت تغيم ، ويهبط أول الليل . رجعت ترطب عيني الدموع ، وخطوت خارجة وعلى عتبة الدار تمتمت :

ـ باسم الله الشافي ، المعافي .

« الفصل الحادي عشر »

فـرغتْ من تحميم البنت ، ومشطتْ شعـرهـا ضفيـرة وكنست الدار ، ورمتْ للدجاج حبـه ، وعلفتْ النعجتين والحمـار ، وذهبتْ للمشروع جلت الأواني النحاس ، ورمت كنسة الدار ، وسقت النخلة وشجرة التين وحوض الخس .

طلبت الستر من المولى . أخذت تستعيد ما جرى ، وتمعن فكرها فيه . تضيق ، ولكن ما باليد حيلة . كيف يعود الذي كانت رأسه مثل ميزان الذهب الى حاله ؟ . تود بكل حبها له أن يخرج من عزلته ، ويبطل الهبـابة الجـديدة التي دق فيهـا . وتنهدت قـائلة « لماذا نحن من دون الخلق ؟ » .

خرجت على عويل ابنها ، يقف عى الباب مسربلاً بدمه . من جبهته يخر « بزبوز » من الدم ولا يتوقف .

ـ يا مصيبتي . مالك يا ولد ؟

وهرولت ناحيته .

خرج « الصفطي » من القاعة . أُخِذَ لما رأى دم ابنه يسيل :

ـ من فعل بك هذا ؟ . انطق .

ـ الولد عيسى ابن المصاروة .

ـ ماله ؟

ـ رماني بحجر .

لِمَ ؟

ـ قال لي . .

وسكت الصغير خائفاً ، ينظر حواليه مستجيراً . شده من طوقه وزعق فيه :

ـ ما الذي قاله ؟ كَمّل . . قول . . انخرست لِمَ ؟ .

ـ قال لي . . قال . . يا ابن الذي شرموا أبيه وأخذوا منه بهيمته .
انقبض قلب « الصفطي » وود لو تنشق الأرض وتبتلعه :
ـ وسكت له ؟ .
ـ ضربته في وجهه فرماني بالحجر .
هوت يد « الصفطي » على الوجه الصغير ، وجعل الولد يتوسل بعينيه المرعوبتين لأبيه فيما يكتسي وجهه بصفرة الموق . جذبه من طوقه وسحبه على التراب . يضرب الولد بلا وعي ، يقاوم عجزه . « أين ابن الحرام هذا ؟ . كيف سكت له ؟ . لماذا لم تفتح قرنه أنت أيضاً ؟ . تأكل زوره . سيِّل دمه ، ولا تعش نعجة في هذه المحروقة . دافع عن نفسك يا ابن الكلاب . أنْبَسَطُ لو جاءني خبرك ، بعد أن تكون مزّعت بطن عدوك » .
رفعه من على الارض وأوقفه . صفعه وألقى به على التراب .
اندفعت « رحمة » كقطة ، بِغِلٍ وأزاحت « الصفطي » عن وليدها ، وصرخت في وجهه « حرام عليك . خاف من الله . الولد سيفطس في يدك » .
نظر لعائلته وصفق بيديه وتمتم بين نفسه « أصبحنا مضحكة للذي يساوي وللذي لا يساوي » .
جاء النداء فغامت عينه « يا صفطي . . يا صفط . . ط . . طي . الحق البهيمة يا صفطي » .

« الفصل الثاني عشر »

آخر شارع البوظ ، بوظة الإمام .

شارع قديم بالمدينة ، على أول بيوته صاجة زرقاء مكتوبة بالأبيض الباهت باسم نسيه الخلق « شارع السلطان » . يقع على سكة حديد الأرياف بمحطتها الخشبية . تقف به عربات يد لشيالين بلا أهل ، وفروشات لخضر ذابلة ، وفاكهة مضروبة ، وعيال تجري حاملة صناديق بداخلها أشياء رثة ، تتسبب على باب الكريم اللقم الحلال .

واجهة البوظة على شكل باكية من الحجر الجيري ، مقشورة الدهان ، مطبوع عليها . . كفوف . . كفوف . . كفوف ، وعين واحدة ، وتمساح محنط أجرب بفعل الشمس والمطر . أعلى الباب يافطة باهتة « بوظة الامام » عليها خراء الذباب نقط .

تقترب فتغشي عينيك الظلمة ، تبربش في الجدار فترى نافذة ربع متر ، تفتح على الخلاء ، ليس لها قضبان ، مركب عليها شبكة السلك ذي الخروم الضيقة ، أكلها الزمن وطمسها الوسخ .

ولج « الصفطي » من الباب ولم يلق السلام .

ـ أهلاً يا صفطي ، مالك شايل طاجن ستك ما تزال ؟ ، بلكي زرعتها بطيخ وحصدت قرع ، انسى يا رجل ، الهم يقصر العمر .

في الظلمة الخفيفة بان رواد البوظة كالأشباح . ود لو نأى بنفسه عنهم . اختار مكاناً قصياً وجلس ، أمامه الباب الموارب حيث يرى السكة الحديد ، والمحطة القديمة وشجر الترعة .

شال الذباب ، حط الذباب . حصيرة من الحشرة السمراء ، المطنة تنتقل من طاولة لأخرى بحرية ، لا تذبها يد ، ولا تطيرها ، شريكة في المكان بحكم الجيرة ورفقة الغياب .

وضعت أمامه القرعة فتجرعها ، ونفذ السائل الخمران في بدنه . لم ينزلها الا بعد أن أفرغها في جوفه . أتت الثانية فألحقها بالأخرى . يريد

أن يلحق بزمنه ، يشتري هدوء نفسه ، يبعد النار عن روحه المحترقة .

سمع « المهدي » الشيّال الجالس قبالته يكلم نفسه :

ـ زمن للعميان ، وميتين القلب . أيام فيها الفقير عجبة ، والكلام مر ، والشكوى لغير الله مذلة .

ـ كفاك يا مهدي ، هي تطلعه عليك في البيت ، وتأتي هنا وتصبه على رؤوسنا .

ـ ما الذي أعمله . المخوزق يشتم السلطان . بنت القحبة عاوزة تليفزيون ملون وهدوم تليق بمقام زمانها ، على الموضة . عجائب حافية بنت الكلب وسابقة المداعي .

بعد القرعة الخامسة دارت الدنيا برأس « الصفطي » . انبسط بالخدر ، وأحس باليد الخفية تأخذه الى الأماكن المفعمة بالأسرار . بهجة في بستان ، وهواء طيب يهب عليه .

أطلق « المهدي » صوته بالغناء فهبوا في وجهه صارخين :

ـ سد حلق البغل ، ملعون الوالدين ، أما يكفيك رائحة البوظة .

ضحكوا بصوت عال ، وكبست رائحة البوظة والسمك الشر المشوي ، ورطوبة الجدران ، وحلقت في المكان نشوة السكارى المتعبين .

بدت السماء من الباب زرقاء ، وغنى « المهدي » من جديد ، غناءً مليئاً بالحنيّة ، رائقاً وعذباً ، ترتفع فيه قلوع المراكب ، ويدفعها الهواء الساري ناحية الشطوط البعيدة .

بدأ النهار يتراجع مخفياً بؤسه ، ورأس « الصفطي » يدور كطاحونة خربة . تمتد يده وتمسح عرقه . شعر كأنها لحظات غرقه ، يكبس على نفسه همه ، وهمّ مشواره الذي لم يخطر له على بال . بدأت

الحلقات الملونة تـدور أمامـه ، والصوت الـلاهب يلسع دمـاغه « يـا صفطي . . يا صفط . . ط . . طي . الحق البهيمـة يا صفـطي » . ضربت رأسه حـداوي خيول السـواري ، ولكمات ضـابط النقطة ، وناس بلده الساخرين . « يا صفط . . طي الحق البهيمة يا صفط . . ط . . طي » . يميز هذه المرة الصوت ، يعرفه ، ويعرف طبقاته . كأنما صوت امه الميتة .

نهض واقفاً ، والذعر باد عليه :

الصفطي سكر وضاعت رأسه . .

تمايل ، واختل توازنه فتساند على الطولات الوسخة ، وخرج من المكان وهو يطلق صيحات « البهيمة . . البهيمة » .

ـ الجدع تاه .

لسوف يأتيه الصوت ، ملحاً وداعياً . سيجيء من بين التراب والدم ، نافذاً من مح العظام ، ولسوف تنسد أمامه المسالك ، وتغشى عينيه المغارب ، ويحس انه الوليد الذي سوف يعود الى الرحم .

سحبه الصوت فعبر القنطرة الخشب ، حتى اذا ما استوى مهوشاً ضائعاً فوق قضبان السكة الحديد .

كان القطار قادماً .

« فصل الختام »

مر الصيف فترك في الاراضي الشقوق ولون الذهب .

وفي بـابـه ، زمن الخـريف شـع الأسى في القلوب ، فـوجفت بالخوف والحنين .

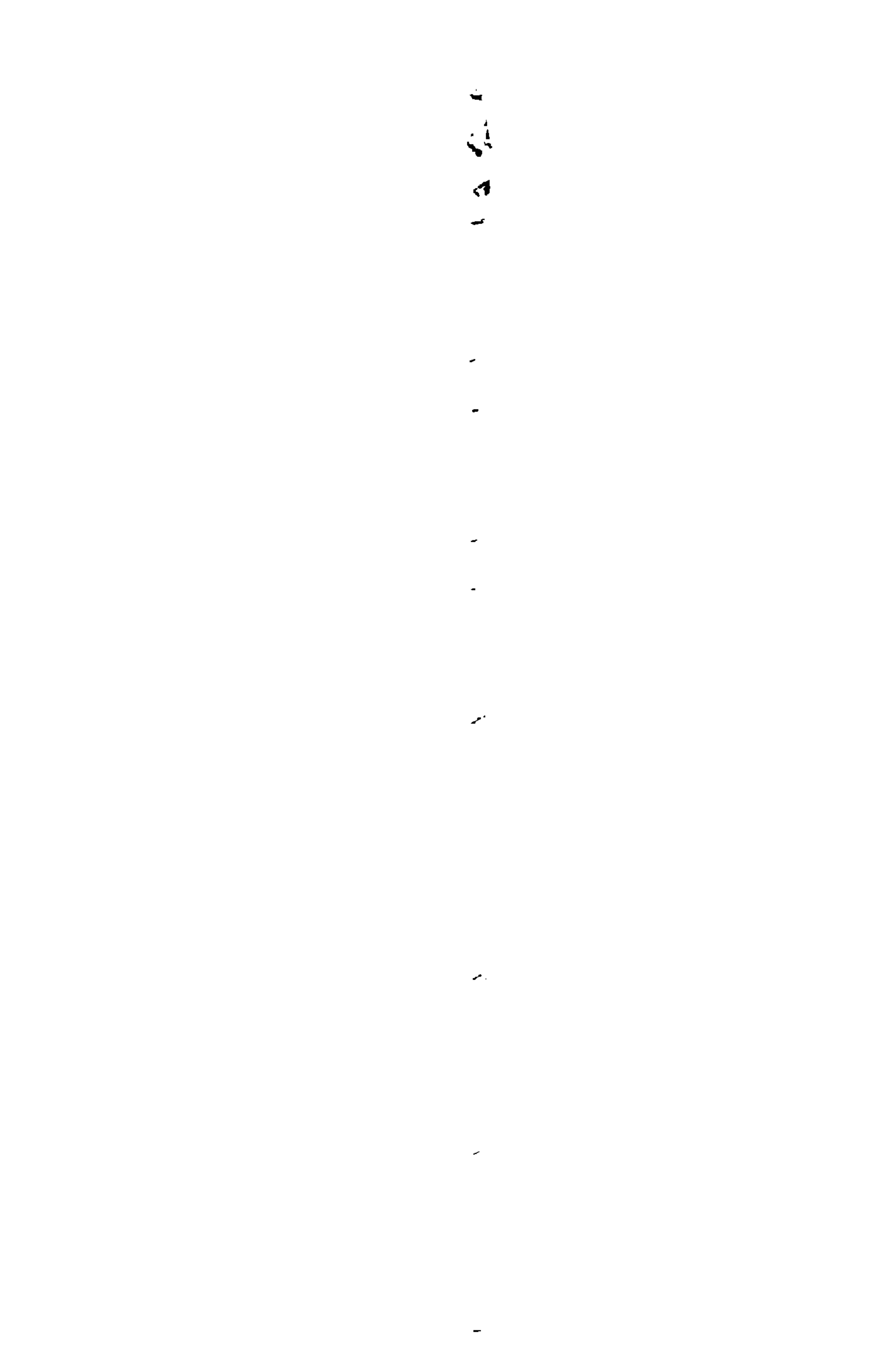
وجاء الشتاء فارتسمت في السماء السحب على شكل جمال وأفيال وجياد راكضة .

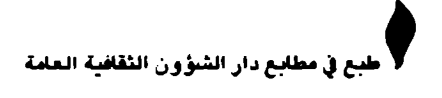
في عكارة الظلام ، الـذي بلا شمس ، ولا قمـر ، نظرت من النافذة ، مربوطة بحبل ذكرياتها « عام ذهب ، وعام يجيء . تلك هي حكمته » .

رأت ويالعجب ما رأت . « الصفطي » يقف وسط الدار ، مثلما كان يقف في الأيام الخالية يلبس لباساً ابيض « لم يكن الكفن » ويذهب ناحية الـزريبة يحـل مقاود النعجتـين والحمار ويهشهم خـارج الدار ، يطلقهم ناحية البراح . نـادت عليه « صفـطي » لم يرد عليهـا وأشاح بوجهه الذي بلا ملامح ، وكأنه من شعاع . استعطفته « حرام ما تفعله بنا . . اتركنا في حالنا » .

غادر الدار منكسر الخاطر . انقلبت على جنبهـا الأيمن وأخذت ولدها الوحيد في حضنها ، وتذكرت غرسـة التين في الفنـاء . همست لنفسها « ليس هناك مـا يخيف » وعادت تقـول : « اللهم اجعله خيراً وارحمنا وارحم أموات المسلمين » .

الفهرست




طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٥٠٣ لسنة ١٩٨٩

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٩

الغلاف: رياض عبد الكريم   السعر ديناران وسبعمائة وخمسون فلساً

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة